عزت السيد أحمد

الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية

انهيار دعاوى الحداثة

كل الحقوق محفوظة

. **الكتاب:** الحداثة بين العقلانيّة واللاعقلانيّة:
انهيار دعاوى الحداثة.
. **المؤلّف:** عزّت السيد أحمد.
. ٢٢٠ صفحة، قطع ب ٥ = ١٧ X ٢٤.
. **الطبعة الأولى** . ١٩٩٥م (دار الثقافة . دمشق).
. **الطّبعة الثّانيّة** . ١٩٩٩م.
. م/ ٤٥٢٣٢ / . تاريخ ١٩ / ٨ / ١٩٩٩م.
. **النّاشر:** دار الفكر الفلسفي للدراسات والترجمة والنشر.
دمشق . هاتف: ٦٢٢٢٦٥٥ . فاكس ٦٢١٨٣٧٣.
. **الحقوق جميعها محفوظة للمؤلّف.**

عزت السيد أحمد

الحداثة

بين العقلانيّة واللاعقلانيّة

انهيار دعاوى الحداثة

دار الفكر الفلسفي

دمشق ـ ١٩٩٩

EZZAT ASSAYED AHMAD

THE MODERNISM
BETWEN
RATIONLISM
AND ERRATIONLISM

The Crumble of Modernism's Claim

الإهـــداء

ليس الإخلاص وحده كافياً لحسن الأداء.
إلى العربي الذي رفد إخلاصه لأمّته بالوعي.

التَّحديث
ضرورةٌ لا اختيار[1]

(١) ـ نشر هذا الفصل في صحيفة الحياة ـ لندن ـ العدد ١٠٨١٠ ـ الاثنين ١٧ ربيع الأول ١٤١٣ هـ الموافق لـ ١٤ أيلول ١٩٩٢ م.

إنَّ الموقف من الذَّات (الأَنا) المغاير للموقف من الذَّوات الأُخرى (الهو والهم) تجاه موضوع أَو موضوعات متشابهة يعكس الحالة النَّفسيَّة للواقفين ضدَّ الحداثة والتَّحديث، ويبرهن على أَنَّ مناهضة الجديد حالة نفسيَّة مرتهنة بمصدر التَّجديد وطبيعته بقدر ارتباطها بمادَّة التَّجديد وموضوعه، وإن كان الارتباط الثَّاني يستمدُّ قيمته في أَكثر الأَحيان من الأَول.

الحداثة ضرورة لا معدَّى عنها ولا مفرَّ منها، لأَنَّها آليةٌ تلقائيَّةٌ مبثوثةٌ في عمق الذَّات البشريَّة، يدفعُ إليها حبُّ الاطِّلاع، اختراق الرَّتابة، القضاء على الملل، تجاوز الآخرين، الإبداع، الاتفاق (المصادفة)، وأُمور أُخرى كثيرة ...

صحيحٌ أَنَّ الشَّمسَ ذاتها تشرق علينا كلَّ يوم، ولكنَّ اليوم ليس ذاته، والشَّمس لا تظلُّ ذاتها. وصحيح أَنَّ الليل النَّهار يتناوبان علينا بتواتر معيَّن ولكن أَيُّ نهارٍ هو عين سابقه، وأَيُّ ليلةٍ هي ليلةٌ منصرمةٌ بذاتها؟

بالتأَكيد لسنا أَمام مفارقة من أَيِّ نوع، لأَنَّ الليل والنَّهار، والشَّمس والنُّجوم .... كمفاهيم لا تتغيَّر البتَّة، وإنَّما المتغيِّر هو الظُّروف والأَحوال .... المرافقة، التي تشكِّل بحدِّ ذاتها مفاهيمَ ثابتةً أَيضاً؛ كالحرارة والبرودة والأَنسام والأَرياح ... وعلى رغم ذلك فإنَّ هذه المفاهيم تُضفي بتغيُّراتها وتبدُّلاتها على كلِّ لحظةٍ وساعةٍ طبائع وسماتٍ خاصَّةٍ تغايرها عمَّا سواها.

من خلال هذا المنظور البسيط نستطيع أَن نستجلي حقيقةً مهمَّةً تتمثَّل بكون الطَّبيعة ذاتها منخرطة في عمليَّة تغيُّرٍ دائمة، لا يدوم على حالٍ لها شأن. وإن لم تكن الطَّبيعة محور حديثنا فقد آثارنا البدء بها للتأكيد على أَنَّ ما يعتقده كثيرٌ من النَّاس ثابتاً ثباتاً أَبديَّاً إنَّما هو متغيِّرٌ؛

فشمس اليوم ليست هي شمس الأَمس ذاتها وإنَّما طرأت عليها جملةٌ من التَّغيُّرات: (بعض الخمود في تأَجُّجها، نقصان في كتلتها، سَمْتُها من الأَرض ...) وكذلك النُّجوم والأَرض ... ولكنَّ ضآلة هذه التَّغيُّرات بالقياس إلى عِظَمِ الحجوم والثَّوابت تجعلها غير مرئيَّةٍ ولا ملموسة، خلاف الحداثة البشريَّة: (فكريَّة، اجتماعيَّة، سياسيَّة ....) التي مصدرها وغايتها الإنسان، فإنَّها سرعان ما تنكشف للعيان والأَذهان، الأَمر الذي يثير الجدل والنِّقاش حول مصداقيَّة هذا التَّحديث، والآثار المترتبة عليه.

يقول **ديمقريطس**: «لا تستطيع أَن تغتسل في مياه النَّهر مرَّتين» ونحن نفهم هذه المقولة لا على أَساس أَنَّ الأمواه في جريان دائم بحيث يغتسل المرء دوماً في بمياه جديدة، فقط، بل على أَنَّ الإنسان ذاته أَيضاً يكتسب في كلِّ لحظةٍ سمات وخصائص جديدة تجعله غير الذي كان قبل قليل؛ بالخصائص والأَحوال والصِّفات لا بالماهيَّة والمكوِّنات، وبالتَّالي فإنَّ الإنسان . وهو يقرأ الوجود، بما فيه ذاته، ويفهمه ويفسِّره . يسير في عمليَّة تغيُّرٍ دائمة، في كلِّ لحظةٍ يكتسب شيئاً جديداً؛ فكرةً، معرفةً، استعداداً، طاقةً، انفعالاً، عاطفةً ... ليكون بذلك مؤهَّلاً وفي كلِّ لحظة لتقديم شيءٍ جديد، ليس بالضَّرورة أَن يكون مغايراً كلِّيَّاً لما سبقه، ولكنَّه لا بدَّ أَن يقدِّم . طوال حياته . أَشياء كثيرة تختلف بصورة إن لم تكن كلِّيَّة فهي شبه كلِّيَّة عمَّا اعتاد عليه وأَلفه، شاء ذلك أَم أَبى، ولكنَّه قلَّما ينتبه إلى ذلك، لأَنَّه هو مصدر التغيُّر، على الأَقلِّ أَمام ذاته، وإن أَدركه فإنَّه نادراً ما يثير

لديه جدالاً في مصداقيَّته لأنَّه كما يقول **ابن خلدون**: «مفتون بإبداع قريحته» وفي الحالتين كلتيهما فإنَّ التَّحديث يمتلك تسويغاً قبليَّاً، وإقراراً داخليَّاً بضرورته وأَهميَّته، على العكس تماماً مما لو كان هذا التَّحديث نابعاً من الغير، حتَّى ولو كان الأَمر المحدث واحداً أَو متشابهاً فإنَّ التَّشكيك وعدم الرِّضا وارد، بل هو الأَكثر احتمالاً.

إنَّ الموقف من الذَّات (الأَنا) المغاير للموقف من الذَّوات الأُخرى (الهو والهم) تجاه موضوع أَو موضوعات متشابهة يعكس الحالة النَّفسيَّة للواقفين ضدَّ الحداثة والتَّحديث، ويبرهن على أَنَّ مناهضة الجديد حالة نفسيَّة مرتهنة بمصدر التَّجديد وطبيعته بقدر ارتباطها بمادَّة التَّجديد وموضوعه، وإن كان الارتباط الثَّاني يستمدُّ قيمته في أَكثر الأَحيان من الأَول.

وينبغي أَلاَّ يُفهم من ذلك أَنَّ كلَّ تحديث أَمرٌ مقبول على كامل عواهنه، فكما أَنَّ في القديم أَشياء مليحة وأُخرى قبيحة كذلك في الجديد المحدث؛ فقد يكون جيِّداً نافعاً وإن وقف البعض ضدَّه، وقد يكون سيِّئاً ضارَّاً وإن ناصره البعض أَيضاً.

إنَّ النَّاس عموماً، والمفكِّرين والمبدعين خصوصاً، يقدِّمون دائماً أَشياء جديدة؛ (مصطلحاتٍ ومفاهيمَ وأَفكاراً ...) ويقرأون الواقع ويفسِّرونه دائماً على ضوء المعطيات التي تستجدُّ على السَّاحة الفكريَّة، ونظرة عابرة إلى تاريخ البشريَّة يكشف بجلاء عن أَنَّ الإنسان لم يتوقَّف

يوماً عن طرح الجديد والسَّعي من أَجله. وإن كان ثمَّة دائماً من يقف ضدَّ الجديد فإنَّه لن يمنع الجديد الجدير من إثبات ذاته، وإنَّ اضطرَّ **جاليليو** مثلاً إلى التَّنكُّر لحقائقه التي توصَّل إليها، لِعِظَمِ المعارضة، فإنَّ ذلك لم يحل دون ظهور هذه الحقائق وفرضها ذاتها على الآخرين انتصاراً لا انتقاماً.

فما المشكلة هنا إذن ؟

نستطيع أَن نوجز فنقول: إنَّ الحداثة ضرورة لا معدَّى عنها ولا مفرَّ منها، لأَنَّها آلية تلقائيَّة مبثوثة في عمق الذَّات البشريَّة، يدفع إليها حبُّ الاطِّلاع، اختراق الرَّتابة، القضاء على الملل، تجاوز الآخرين، الإبداع، الاتفاق (المصادفة)، وأُمور أُخرى كثيرة ... وإنَّ محاولة الوقوف أَمام الحداثة بصورة اعتراضيَّة فجَّة لا تعدو كونها محاولة لإيقاف تيار الزَّمان المتدفِّق على الرُّغم منَّا، وبغير إرادتنا أَو اختيارنا، ولذلك فإنَّ **المطلوب منَّا لا مواجهة التَّحديث وعرقلته، ولا ركوب تيَّار الحداثة من غيرما تبصُّر، وإنَّما أَن نفهم الحداثة روحاً ومضمونا، ونسلس قيادها لنحسن توجيهها إلى ما ينتشلنا من براثن التَّخلُّف والجهل، وينقلنا من تناقضات النِّزاع والصِّراع إلى صلب الإشادة والبناء.**

وهم الخيار
بين الأَصالة والحداثة(٢)

(٢) . نشر هذا الفصل في صحيفة الحياة . لندن . العدد ١٠٨٥٩ . في الاثنين ٢ تشرين الثَّاني ١٩٩٢م.

إنَّ الاعتقاد بإمكان الاستغناء الكلِّيِّ عن الماضي أَو عن الحاضر لا يعدو كونه اعتقاداً بافتراق الإنسان ذاته، وانفصاله عن الزَّمان؛ فواحدٌ يستقطب الزَّمان ويجمِّده، والآخر يفصم الإنسان عن ذاته ويضربه بالسَّيرورة التَّاريخيَّة عرض الحائط، ولذلك فإنَّ الاعتناق الجدِّيِّ الصَّارم لأَحد هذين الجانبين ليس إلا ضرباً من الفصام النَّفسي / الفكري.

ليست مشكلة الجديد أو المستحدث جديدةً في تاريخ البشريَّة، ولكنَّها لا تظهر كأَزمة إلا في المراحل الانتقاليَّة للمجتمعات؛ حيث تتجلَّى الحساسيَّة المفرطة تجاه كلِّ مستحدث جديد، سيَّان كانت هذه الحساسيَّة من أَنصار التَّحديث أَم من المتمسِّكين بالقديم.

إنَّ أَزمة الأَصالة والحداثة بمعنًى من المعاني أَزمةٌ تاريخيَّة، تضرب جذورها في عمق الماضي السَّحيق، مروراً بكلِّ المراحل التَّاريخيَّة التي مرَّت بها المجتمعات البشريَّة، لتغدو بهذا المعنى ملازمةً لكلِّ المجتمعات، وفي مختلف مراحلها، وقد عانى الأَقدمون ما عانوا من صراعٍ بين القديم والجديد، ومما خلَّفه هذا الصِّراع من آثار جمَّة انعكست في مختلف أَوجه النَّشاط الفكري والأَدبي والاجتماعي والاقتصادي ...

انطلاقاً من ذلك نستطيع القول إنَّ أَزمتنا الرَّاهنة ـ والتي طال الجدال فيها وتشعَّب أَكثر مم ينبغي بكثير ـ ليست أَزمة طارئة، أَو واحدة من خصائص عصرنا المميزة، وإنَّما هي أَزمة اعتياديَّة، ولكن لها سماتها الخاصَّة التي تميِّزها عمَّا سواها من أَزمات سابقة. والذي تجدر الإشارة إليه على هذا الصَّعيد أَنَّ هذه الأَزمة لا تظهر كأَزمة إلاَّ في المراحل الانتقاليَّة للمجتمعات، حيث تتجلَّى الحساسيَّة المفرطة تجاه كلِّ مستحدث جديد؛ سيَّان كانت ـ الحساسيَّة ـ من أَنصار التَّحديث أَم من المتمسِّكين بالقديم.

يبدو الجديد أَمام المجدِّدين برَّاقاً ومؤتلقاً يشدُّهم إليه بكلِّ قوَّة، وفق آلية تأثيريَّة مزدوجة؛ خارجيَّة وداخليَّة، ينبثق أَولها من قدرة الجديد على الاستحواذ على الإعجاب واستمالة النَّزَّاعين إلى التَّحديث بما يمتلك من جاذبيَّة لها طابعها الخاص المتميِّز. وثانيها من ميول هؤلاء المجدِّدين وأَهوائهم التي تدفعهم بتأثير التَّحدي وتوكيد الذَّات إلى المواجهة الانفعاليَّة والتَّمسك بالجديد حتَّى العضَّ عليه بالنَّواجذ، الأَمر الذي يحيد بالكثيرين عن الرُّؤية العقليَّة، وعن المحاكمة المنطقيَّة لما يبتدعونه.

أَمَّا المتمسِّكون بالقديم، وبتأثير المرحلة الانتقاليَّة وشروطها، فإنَّهم ينظرون إلى الجديد نظرة خوف ورهبة تدفعهم إلى معاداة هذا الجديد، ومحاربته أَيضاً، وفق آلية تأثيرٍ مزدوجة تستمدُّ مسوغها الأَول من أَنَّ الجديد في الأَغلب الأَعم يتعارض مع ما هو سائد وقائم، هذا الذي اعتادوا عليه وأَلفوه حتَّى غدا جزءً من كينونتهم، ولذلك نؤكِّد أَنَّ التَّحديث لا يغدو أَزمة إلا إذا اندرج في صلب التَّغيرات المرافقة للمرحلة الانتقاليَّة؛ من طور إلى طور، ومن حال إلى حال. لأَنَّ كلَّ تحديث أَو تجديد يمرُّ به المجتمع إبَّان استقراره وتوازنه لن يكون أَمراً ذا بالٍ لأَنَّه يُنظر إليه ضمن سياقه التَّاريخي المندرج فيه.

والأَمر الثَّاني الذي يبرر المتمسِّكون بالقديم لأَنفسهم من خلاله محاربة الجديد ومعاداته فهو تلك الآليَّة النَّفسيَّة اللاشعوريَّة المرتبطة بالخوف من كلِّ جديد والحذر منه، إلى جانب العوامل المساعدة الأُخرى

المتولِّدة من ميل الإنسان إلى ما يألف ويعتاد، وهذا مما يتصل بوثاقة بآليَّة التَّأثير اللاشعوريَّة في الإنسان حيث الحديث هنا يتعدَّى إلى العواطف والميول والأَهواء التي تقود الإنسان إلى اتخاذ المواقف وإصدار الأَحكام والآراء بصورة انفعاليَّة تحول كثيرٌ من الحجب بينها وبين المحاكمة المنطقيَّة اللازمة أَو الكافية كيما تكون الأَحكام والآراء أَقرب إلى الصِّحَّة والصَّواب.

إنَّ الموقفين كليهما يبدوان صحيحين ومُسوَّغين لأَصحابهما على الأَقلِّ، والحقُّ أَنَّه لا يخلو الموقفان . باعتبار ـ من الصِّحَّة، وليس بدعاً من الخيال أَن نقول إنَّ كليهما يفتقر إلى الآخر ولا يمتلك بذاته كامل مقوِّمات وجوده؛ فكلاهما صحيحٌ وخاطئ بآنٍ معاً، أَعني أَنَّ القديم ليس كلَّه يستحقُّ أَن يكون زاداً لحاضرنا، ولا كلُّ جديدٍ يمتلك من المصداقية ما يدفعنا إلى اعتناقه من غير تفكير أَو معاينة، وبالتَّالي فليست المسألة مسألة خَيارٍ بين القديم والجديد، أَو الأَصالة والحداثة، وإنَّما هي مسأَلة تواصل وتكامل، فبقَدَرِ حاجتنا للجديد نحن بحاجة للقديم، ولكن لا القديم كله ولا الجديد كله، فثمَّة ماضٍ لا يمكن الاستغناء عنه لأَنَّ قطع صلة الإنسان بماضيه تعني انسلاخه عن أَصله، واغترابه عن ذاته، وتنكُّره لهويَّته، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأَنَّ اندثار الأُمَّة ليس يعني بالضَّرورة فناء أَفرادها وانقطاعهم عن الوجود فقط، بل

يعني أَيضاً هذا الانسلاخ والاغتراب بالذَّوبان الكلِّيِّ في فكرٍ وثقافةٍ مغايرين لفكر أُمَّته وثقافتها.

وفي الوقت ذاته فإنَّ التَّنكُّر للمعطيات المعاصرة بمختلف أَشكالها وألوانه أَمرٌ إن لم مستحيلاً فهو أَشبه بالمستحيل لأَنَّ الإنسان شاء أَم أَبى ابن ساعته ويومه، ولنفترض جدلاً بأَنَّ مجتمعاً ما استطاع الانكفاء على ذاته والانغلاق عليها فما الحال التي سيعيش عليها؟ لن شكَّ في أَنَّه لن يكون متخلِّفاً وحسب، بل إنَّه سيولِّد التَّخلف تلقائيَّاً بآليَّةٍ داخليَّة تقوم بوظائف مركَّبة ومتراتبة؛ فهي تجذِّر التَّخلف وتؤصِّله من جهة، وتعمل على تبرير هذا التَّخلُّف وإعطائه شرعيَّةً معيَّنةً من جهةٍ أُخرى، وليس هذا فحسب بل إنَّ هذا الانغلاق والتَّقوقع سيزداد تعمُّقاً مع الزَّمن، الأَمر الذي يؤدِّي إلى اضطراد السَّلبيات وشمولها، وكثرة الانتكاسات واشتداد الارتكاسات، مما يؤطِّر التَّقدُّم بالتَّخلُّف، فيكون التَّقدُّم تقدُّماً في التَّخلُّف، أَي انتقالاً من السيء إلى الأَسوأ. والحقُّ أَنَّ هذا أَمرٌ قلَّ حدوثه وندر، لأَنَّ الاختراقات التَّحديثيَّة لا بدَّ أَن تلعب دورها وتفرض ذاتها.

إنَّ الاعتقاد بإمكان استقلال أَحد هذين الجانبين استقلالاً كلِّيَّاً لا يعدو كونه اعتقاداً بافتراق الإنسان عن ذاته، وانفصاله عن الزَّمان، فواحدٌ يستقطب الزَّمان ويجمِّده، والآخر يفصم الإنسان عن ذاته، ويضرب بالسَّيرورة التَّاريخيَّة عُرضَ الحائط، ولذلك فإنَّ الاعتناق الجدِّي الصَّارم

لأَحد هذين الجانبين . ومن غيرما تحفُّظ . ليس إلا ضرباً من الفصام النَّفس / الفكري. إنَّ الذي يجب علينا هنا لا أَن نختار بين نقيضين متقاطبين، وإنَّما أَن نحسن التَّوفيق بين حاضرنا من جهة، وماضينا ومستقبلنا من جهة أُخرى؛ بأَن نضع إصبعنا على أَدوائنا في أَطوارها

- الثَّلاثة، ونعرف كيف عالجها.

الحداثة

أزمة ضياع لا ضريبة تحضُّر[٣]

(٣) . نشر هذا الفصل في صحيفة الحياة . لندن . العدد ١١٠١٤ . في ٩ نيسان ١٩٩٣م.

إنَّ المجتمع الآخذ في الانحدار والانحطاط أَميل إلى تقبُّل كلِّ جديد دون كثير من المناقشة أَو الجدل، والمجتمع المتخلِّف عموماً لديه قابليَّة كبيرة للإيحاء والاستهواء والتَّقليد، أَمَّا المجتمع النَّامي؛ الآخذ بركاب التَّطور والتَّقدُّم فإنَّه بجملة من المزاعم والذَّرائع يحسب نفسه قادراً على تجاوز النِّتاج المعرفي والحضاري الذي أَضنى البشريَّة قروناً طويلة.

الحقُّ أَنَّ مشكلتنا لا تنبع من الحداثة بحدِّ ذاتها؛ وإنَّما هي معضلتنا في أَدعياء العلم والمعرفة المتطفِّلين على ميادين الفكر والثَّقافة، وفي تنصُّل الموهوبين والأَكفياء من ممارسة دورهم، وفي عقدة التَّخلف والصَّغار والشُّعور بالقزميَّة.

لقد بات من المسلَّم به أَنَّ الحداثة أَمرٌ لا معدَّى عنه، وأَنَّ مدافعة الحديث ومحاربته لا تعدو كونها ضرباً من محاولة إيقاف تيَّار الزَّمان المتدفِّق، وعلى رغم ذلك لا نلبث إلا أَن نجد من يثير مسألة الحداثة على أَنَّها ما تزال مثار النِّقاش والجدل، وحول مدى أَحقِّيَّة المحدثات في الوجود، ضاربين في ذلك سنَّة الحياة والواقع عرض الحائط، وكأَنَّ في مكنة الإنسان أَن ينغلق على ذاته انغلاقاً كلِّيَّاً، بعيداً عن أَيِّ اتصال خارجي، بل وكأَنَّ في مقدورنا انتزاع الواقع من سياق الزَّمان وتثبيته عند لحظة معيَّنةٍ مختارة. ولذلك نجدنا مضطرين للتساؤل عن سبب استمراريَّة الوقوف أَمام هذه المسألة / الأَزمة ـ المعضلة،لماذا تُعدُّ الحداثة أَزمة، ولماذا طال وقوفنا أَمامها؟

غير خافٍ أَنَّ الإنسان بطبيعته النَّفسيَّة أَميل إلى تأطير الحياة في نظم نمطيَّة اعتياديَّة، وهذا ما يجنح به عادةً إلى التَّروي والوقوف أَمام كلِّ جديد، ولا تختلف المجتمعات عن الأَفراد كثيراً في هذا المنحى السُّلوكي، ولكنَّ الحساسيَّة لاتتجلَّى على نحو إشكالي ـ وبصورتها المفرطة التي نعيشها ـ إلا في المراحل الانتقاليَّة ارتقائيَّاً لا انحداريَّاً، لأَنَّ المجتمع الآخذ

في الانحدار والانحطاط أَميل إلى تقبُّل كلِّ جديد دون كثيرٍ من المناقشة والجدل. والمجتمع المتخلِّف عموماً لديه قابليَّة كبيرة للإيحاء والاستهواء والتَّقليد واحتذاء خطى الآخرين (الأَقوى) دون شكٍّ أَو تمحيص. أَمَّا المجتمع النَّامي، الآخذ بركاب التَّطوُّر والتَّقدُّم فيَدَّعي أَنَّه يريد أَن يبني ذاته بكدِّ يمينه وعرق جبينه. بناءً نقيَّاً صافياً، لا يد فيه لأَجنبي، متذرِّعاً بالحرص على الهويَّة والانتماء القوميِّ أَو العرقي أَو ما شابه ذلك. ظانّاً القدرة في ذاته على القفز فوق جدران التَّاريخ، معتقدا بإمكان تجاوز النِّتاج المعرفي والحضاري الذي أَضنى البشريَّة قروناً طويلة خلال ساعةٍ أَو سنةٍ أَو أَكثر.

والمشكلة الحقَّة التي تعترضنا هنا هي أَنَّ المجتمع الآخذ بالارتقاء والنُّهوض من ركام التَّخلُّف والجهل يُفترض فيه من النَّاحية النَّظريَّة أَن يكون ذا أُفق واسع ومنفتح يحمله على استيعاب المضامين الجديدة وهضمها كيما يتيسَّر له تجاوزها، ولعلَّ هذا ما دفع إلى الاعتقاد بأَنَّ تأزُّم الصِّراع بين القديم والجديد، واستفحال الخلاف حول الحداثة ومضامينها وأَبعادها إنَّما هو الضَّريبة الحقيقيَّة للتحضُّر والقضاء على التَّخلُّف. والذي نراه في مجتمعاتنا وبين مفكِّرينا لايكاد يتَّفق مع أَيٍّ من هذين النَّمطين الحضاريين بصورة من الصُّور، فلا نحن على شفى هاوية النُّكوص والانحدار، ولا نحن قادرين على احتواء الجديد استيعاباً وهضماً إن كنَّا نسير قدماً إلى الأَمام، فما المشكلة؟ وأَين نحن إذن؟

المشكلة الحقيقيَّة، وبكلِّ بساطة، أَنَّنا لا ننتمي إلى أَيٍّ من النَّمطين الحضاريين السَّابقين، ولا إلى ما بينهما. إنَّنا نعيش حالةً من الضَّياع متعدِّد الأَوجه والجوانب، ولا سيَّما الفكري والعقائدي (الأَيديولوجي) النَّاجم عن جملةٍ من الأَسباب الدَّاخليَّة والخارجيَّة، المتداخلة والمتشابكة بآنٍ معاً، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

أَولاً: **التَّطفليَّة التي تعيشها مجتمعاتنا**، بمختلف أَشكالها وأَلوانها، **ولا سيَّما تطفُّل مدَّعي الثَّقافة والمعرفة على ميادين الفكر، والتَّشدُّق بآرائهم ونظراتهم الفجَّة المفتقرة إلى الأَصالة والعمق،الهادفة إلى إثارة الجعجعة والضَّجيج** دونما أَيِّ دورٍ فاعل؛ كمفرقعات الأَعياد التي تُبْهِرُ بعضاً وتخيف بعضاً وتنتهي بلا أَثرٍ يُذكر.

ثانـياً: **تنصُّل غالبيَّة المثقَّفين وأَصحاب المواهب والكفاءت من ممارسة دورهم في تفعيل الحركة الثَّقافيَّة والفكريَّة**، وتهرُّبهم من تبوء مراكزهم الحقيقيَّة، لأَسباب جلُّها واقعي، ولكنَّها لا تكفي لتسويغ هذا التَّهرُّب والتَّنصُّل. وهذا ما يهيء لفريق المتطفِّلين الشَّواغر ويحملهم إلى مكان الصَّدارة واتِّخاذ القرار.

ثالـثاً: **عقدة التَّخلُّف والصَّغار، والشُّعور بالتَّقصير والقزميَّة أَمام مزدوجة متناقضة** تتمثَّلُ أَولاً بالمقارنة مع الأَطراف الخارجيَّة، وبالمقارنة ثانياً مع ما كان عليه الأَجداد وما عليه الأَحفاد الآن. لنغدو بذلك أَمام تناقضٍ وتمزُّقٍ داخليٍّ رهيب، يتنازعنا فيه الماضي والحاضر بآنٍ معاً؛ نعشق

أَلْقَ الماضي ولا نكتفي بتمنِّي عودته بل نسعى إلى استحضاره، ونُبْهرُ من حاضر غيرنا ولا نعرف كيف نهضمه، وهكذا نظلُّ نلهث في مضمارين ليسا لنا، وننسى مستقبلنا وهو ما ينبغي أَن نُعدَّ له؛ كمن يزرع في أَرض غيره ويترك أَرضه بواراً، أَو كمن يبني للنَّاس قصوراً وهو شريد الطُّرقات.

رابعاً: **القهر الغربي** المتجلِّي في مختلف الصُّعد والمستويات؛ من نظرة فوقيَّة إلى الهيمنة السِّياسيَّة ووالعسكريَّة والاقتصاديَّة واحتكار التِّقنيَّة واستقطاب الأَدمغة المبدعة، وصياغة قراراتنا الدَّاخليَّة في كواليس وردهات مجالسهم.

خامساً: **ضروب الاستبداد السِّياسي والفكري التي يعيشها أَفراد المجتمع عموماً والمفكِّرون خصوصاً**، الأَمرُ الذي يُقصي النِّقاشات الجوهريَّة والحسَّاسة ويفسح المجال أَمام السَّفاسف والتُّرَّهات، ويشجِّع على اجترار الاشكالات الممجوجة التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

سادساً:**ضيق الأُفق الفردي والاعتداد الزَّائف بالذَّات الفرديَّة والجمعيَّة.**

إنَّ هذه العوامل مجتمعةً ومتفرِّقةً أَسهمت إلى حدٍّ جدِّ كبير في بلورة بنى مصرَّعة ومتصدِّعة فكريَّاً وعقائديَّاً . وإن كان ثمَّة شيه تماسك في البنيان الاجتماعي التَّقليدي . ودفعاً للَّبس لابدَّ أَن نبيِّن الفرق بين تصدُّع البنى الفكريَّة وتصرُّعها من جهة، وتنوُّع مشاربها وتباين مذاهبها من جهة ثانية، ذلك أَنَّ اختلاف الآراء وتعدُّد الاتجاهات يعدُّ من غيرما شك

التُّربة الأَخصب والأَرضيَّة الأَصلب للنَّماء والتَّطور، والتَّعبير الصَّادق عن ديمقراطيَّة الحوار وحريَّة الفكر، ووهذا بالتَّحديد ما تفتقر إليه مجتمعاتنا.

أَمَّا التَّصدُّع والتَّصرُّع ـ وهذا ما نحن مُترفون به لبالغ الأَسف ـ فهو التَّجسُّد الواقعي للخواء الفكري وفوضى الانتماء العقائدي والسِّياسي، حيث المصالح الأَنوية أَو الأَنانيَّة هي التي تقود الأَفكار والآراء والمبادئ لا العكس الذي هو الواجب. وفي إطار هذا المناخ المُتخم بالفساد والتَّناقضات تطفو النَّزعات المصلحيَّة ـ المنبثقة من دوافع تسويغيَّة وتبريريَّة ـ كالفقاعات على سطح الماء؛ تُولِّي حيث الرِّيحُ تقودها.

وهذا، في حقيقة الأَمر، ما يقودنا مباشرةً إلى سؤالنا المطروح آنفاً وهو: لماذا طال وقوفنا أَمام الحداثة كأزمة ـ معضلة؟ ففي ظلِّ هذه الوضعيَّة المتصدِّعة المرتسمة على كلِّ ملامح مجتمعنا العربي تتسع الشُّروخ وتزداد الانشعابات، وتتعزَّز فوضى الصِّراع لننتقل من ضياعٍ إلى ضياع ومن تشتُّتٍ، وتظلُّ المسألة الجوهريَّة ـ وهي حسم الصِّراع بين القديم والحديث بالتَّوفيق لابالتَّلفيق ـ مُغَيَّبةً عن السَّاحة،وهذا مما هو مرتبطٌ أَيضاً أَوثق الارتباط بمصالح الطَّبقات والفئات الحاكمة.

إنَّ استمرار الصِّراع بين فريقي الأَصالة (العراقة) والحداثة (المعاصرة) أَكثر من قرن، وعدم الاتفاق حتَّى الآن على مفهوم الحداثة والمراد منها، ولا على ما تعنيه الأَصالة وما يعوَّل عليها، يُردُّ بصورة مباشرة إلى ما نعانيه من ضياعٍ فكريٍّ وانفصام ثقافي لا إلى النُّقلة الحضاريَّة التي يعيشها

مجتمعنا العربي، وهي نقلة ما زالت إلى الآن عاجزةً عن الخروج من طوق الزِّيف والوهم، وبالتَّالي فإنَّ أَزمة الحداثة التي نعيشها هي أَزمة الضَّياع المُهيمن علينا لا ضريبة التَّحضُّر والنُّهوض من ركام التَّخلُّف والجهل كما يعتقد كثيرون.

تصنُّع الحداثة

الحداثة والفكر المستورد

إنَّ شجب الجماعة لأَيِّ انحراف عن قيمها أَو معاييرها الخاصَّة من قبل أَفرادها أَو الغرباء فيها إنَّما هو دفاعٌ عن وجودها وحماية لها، وبغضِّ النَّظر عن مصدر قداسة هذه القيم فإنَّ المجتمع ذاته يضفي على معاييره وقيمه قداسةً نوعيَّةً يتمترس بها من عوادي الزَّمن، وهذا ما يتبلور مع الأَيام بصورة تدريجيَّة يتولَّى اللاشعور الجمعي صياغتها، وتترسخ في طوايا العقل الباطن الفردي، وتندغم مع فكر المرء وأَنماط سلوكه وضروب قيمه حتَّى يصبح كلُّ فردٍ ممثلاً للمجتمع، وكأَنَّ الفرد هو المجتمع؛ فيثور الفرد باسم المجتمع، ويفخر باسم المجتمع، ويتمرَّد باسم المجتمع.

كيف أَحترم منتمٍ إلى العروبة بالهويَّة وهو يحقر ذاته وتراثه وأَسلافه، وينعت أُمَّته بما يستحي الأَعداء التَّجنِّي به، في الوقت الذي يُعظِّم به شراذم الغرب أَو عظماءه ممن يقلِّون رفعة عن أَسلافنا؟ هذا ما فعله الحداثيون.

لقد بات من مسلَّمات الفكر العلمي أَنَّ لكلِّ مجتمعٍ خصائصه التي يمتاز بها وبها يفترق عمَّا سواه من المجتمعات، وأَنَّ أَيَّ محاولة لتطبيع قومٍ بخصائص قومٍ آخر؛ مباينة لخصائصهم، لا تعدو كونها ضرباً من العبثيَّة ومحاولة القفز فوق قوانين الطَّبيعة، والأَدلَّة التَّاريخيَّة أَكثر من أَن تُعدَّ أَو تحصى، ولعلَّ في تجربة الاستعمار الحديث خير ما يُفصح عن ذلك ويثبته. هذا الكلام عامٌّ وشامل، ويمكن عدُّه بمثابة القانون السَّاري فعله في المجتمعات كلِّها. اللهمَّ غلا المجتمعات التي ترنو إلى الاندغام في بوتقات مجتمعات أُخرى، جاعلة من إراداتها بذرة التَّحوَّل والتَّغيُّر.

وقبل أَن نمضي في حديثنا لا بدَّ أَن نبيِّن من أَمرين بقدر ما يهمُّنا منهما؛ أَولهما قصدنا بالمجتمع، وثانيهما خصائصه المميزة. نريد من المجتمع هنا دلالتيه الضَّيقة العامَّة، أَو المحدودة والمفتوحة؛ فالأُولى تشير إلى الجماعة البشريَّة التي تستوطن مكاناً واحداً وتقوم على مجموعة من الخصائص المشتركة التي تعدُّ محاور مفهوم المجتمع، أَمَّا الدَّلالة العامَّة أَو

لمفتوحة للمجتمع فهي التي يمكن حملها على كلِّ ضربٍ من التَّجمُّعات البشريَّة النَّوعيَّة مثل المجتمع القروي (الرِّيفي)، والمجتمع المديني، والمجتمع الصِّناعي، ومجتمع المدرسة، ومجتمع العمل ... ويمكن إدراج الأُمَّة كمجتمع في هذا الاطار. أَمَّا خصائص المجتمع المميزة فهي كثيرةٌ تتمحور حول أُطرٍ عامَّة: نفسيَّة، اجتماعيَّة، أَخلاقيَّة، جماليَّة ... ومنها على سبيل المثال: أَنماط التَّفكير، وضروب السُّلوك، وكيفيَّات التَّعامل، والعادات، والتَّقاليد، والأَعراف، والتَّذوُّق الجمالي للموسيقى والغناء والرَّسم والعمارة ... وغير ذلك كثير.

إنَّ استهجان الجماعة (المجتمع) واستنكارها وشجبها ورفضها لأَيِّ انحرافٍ من قبل أَفرادها . وربَّما الغرباء . عن هذه المعايير الخاصَّة أو القيم إنَّما هو دفاعٌ عن وجودها وحماية لها. وبغضِّ النَّظر عن مصدر قداسة القيم فإنَّ المجتمع ذاته يضفي على معاييره وقيمه قداسةً نوعيَّةً يتمترس بها من عوادي الزَّمن، وهذا ما يتبلور مع الأَيام بصورة تدريجيَّةٍ يتولَّى اللاشعور الجمعي صياغتها، وتترسخ في طوايا العقل الباطن الفردي، وتندغم مع فكر المرء وأَنماط سلوكه وضروب قيمه، ولذلك يصبحُ كلُّ واحدٍ من أَفراد المجتمع ممثلاً للمجتمع، وكأَنَّ المجتمع هو الفرد؛ فيثور الفرد باسم المجتمع، ويفخر باسم المجتمع، ويتمرَّد باسم المجتمع ...

ولذلك كلِّه وقفت معظم المجتمعات . إن لم تكن كلُّها . ضدَّ الحداثة؛ استنكرتها، شجبتها، رفضتها، حاربتها. ولأَنَّها أَيضاً . ومن غير

موارية. تخرق قيم المجتمع ومعاييره، تهزأ بالتُّراث، تنظر إلى مواضع اعتزاز المجتمع وكرامته وتمدُّ لها لسانها بكلِّ وقاحة، هذا على الرُّغم من سعي أَصحابها الحثيث لإقناع النَّاس بأَنَّ حركتهم ترنو إلى التَّغيير للوصول إلى الأَفضل وتشرئبُّ إلى مستقبل أَسمى ...

إنَّ ما ينبغي أَن ندركه هنا ونقرَّ به هو أَنَّ محاربة الحداثة لم تكن لمجرد المشاكسة أَو حبِّ التَّشدق، والذين ناهضوا الحداثة لم يفعلوا ذلك لمحض المناهضة أَو الميل إلى المناكدة، وأَنَّ ذلك وإن جاء على نحو ردَّة فعل عفويَّة من النَّاس والمؤسَّسات الاجتماعيَّة إلا أَنَّ ردَّة الفعل هذه لم تكن ساذجة سلبيَّة وإنَّما كانت منبعثةً في البدء من عمق اللاشعور الجمعي الحريص إلى الجماعة وقيمها ومعاييرها، وسرعان ما انتقل هذا السُّلوك إلى ساحة الشُّعور لاستنفار قوى النَّفس وملكاتها للدفاع عن الذَّات.

لقد حوربت الحداثة من قبل المجتمع بصورتيه الفرديَّة الممثلة للمجتمع على نحو ما أَبنَّا، وعَبر مؤسساته المختلفة، «ففي عام ١٩٠٧م شجبت الكنيسة الكاثلوكيَّة الحداثة واعتبرتها بدعة تقتضي محاربتها، كما أَعلن الفاتيكان مرَّةً أُخرى خلال عهد البابا بول عن شجبه للحداثة الجديدة، كما اعتبر هتلر الحداثة فنَّاً منحطَّاً، وقد أُصيب الأَدبُ بالتُّخمة والغثيان من مصطلح الحديث، ويأخذ هاري ليفن على المحدثين أَنَّهم كانوا مغرمين بأَفكارهم الشَّخصيَّة، بل أَسوأ من ذلك أَنَّهم يطلبون من عقول

قرَّائهم مطالب حادَّة، ويأخذ النَّاقد الماركسي جورج لوكاتش على الحداثة موقفها السَّلبي من الإنسان والتَّاريخ، وبعد أَن يفيض في تشريح معظم المواقف التي ينطوي عليها هذا الأَدب ينتهي إلى نتيجةٍ مؤدَّاها أَنَّ الحركة الحديثة لاتقود إلى تحطيم الأَشكال الأَدبيَّة التَّقليديَّة فحسب بل تؤدِّي إلى تدمير الأَدب نفسه[1]».

أَمَّا وقع هذه المشكلة على مجتمعنا فهو إن لم يكن أَعظم مما هو عليه عند الغربيين فإنَّه لم يكن أَقلَّ منه أَبداً، بل حملت المشكلة لدينا أَبعاداً أُخرى زادتها تعقيداً وتشابكاً؛ ففوق أَنَّها لم تتوقَّف عند تعارضها مع قيمنا ومعاييرنا وفكرنا وعادتنا وأَعرافنا، وفوق أَنَّها تحقر تراثنا وأَسلافنا ومقدَّساتنا الدِّينيَّة والدُّنيويَّة في الوقت الذي تُعظِّم فيه ترَّهات الغرب وأَعلامه؛ رفيعهم ووضيعهم، وترفعهم إلى مصاف العظمة المنقطعة النَّظير التي تسمو على الأَنبياء، ولا مبالغة البتَّة في وصف غلُّوهم في تقديس الآخر وتحقير الذَّات . فوق ذلك كلِّه، أَقحمها . الحداثة ـ أَنصارها في ميادينا إقحاماً، وفرضوها على فكرنا وعقولنا فرضاً. فهي مستوردة كما تستورد المصنوعات التي لا يسمح لنا بفقه كنهها، وإن فتحناها لنعرف ما فيها لم نُزد على أَن ننظر إلى بعضنا وابتسامة اليأس والإحباط مرتسة على الوجوه بالرُّغم عنَّا. لقد استوردنا الحداثة

(١) . د.عبد الله أَحمد المهنا: الحداثة والتَّحديث في الشِّعر . مجلة عالم الفكر . وزارة الإعلام . الكويت . ١٩٨٨م . المجلد ١٩ . العدد ٣ . ص ٩/١٠ .

دون أَن نفهمها، دون أَن نعلم حقيقتها، دون أَن نعرف طبيعتها وظروف نشأتها وارتباطاتها مع البيئات التي نشأت فيها، دون أَن نفكِّر في مدى موافقتها لنا، لطبائعنا، لأَذواقنا، لأَخلاقنا، لظروفنا، لمختلف معطيات حياتنا ....

لندع ذلك كلَّه ونتساءل: **كيف ينظر الغربيون إلينا عندما يروننا نتخبَّط في بدعهم التي تنكَّروا لها، أَو لم يتنكَّروا لها؟**

يعتقد أَنصار الحداثة والنَّفر المغرم بالمدح والتَّقبريظ من الآخرين أَنَّ مفكري الغرب ينظرون إلينا نظرة إكبار وإجلال، ودليلهم على ذلك هو حيثهم بإعجاب عن إنجازات فلان وفلان ... وتقريظهم لفلان وفلان ... وإعجابهم بهم، وحتَّى هؤلاء: س١، س٢ ... الذين تُقرِّظهم صحف الغرب ومجلاته ومنابره الإعلاميَّة فإنَّهم يطلعون علينا بين الفينة والأُخرى بتصريحاتهم الطَّنَّانة التي تطيِّر النُّعاس من الأَعين باستجلابها التَّشنُّج الكولوني والتَّلبُّك المعوي. يقولون: الآن أَصبح الشِّعر العربي عالميَّاً، الفنُّ التَّجريدي العربي لا يقلُّ الآن عن الفنِّ العالي بمستواه ... فما مدى مصداقيَّة هذا الكلام؟

بغضِّ النَّظر عن عن عدم فهم هؤلاء لمعنى العالميَّة في الفنِّ والأَدب، وعجزهم عن فهما، فنحن لن نرفض هذا الادِّعاء، ولكن لن نقرَّ به، وإنَّما سنعرض رأينا ونترك للقارئ الحكم في ذلك. أَمَّا رأينا فقد قدَّمه الاستاذ سعد صائب عبر حواره مع بعض النُّقَّاد الغربيين. وليس يهمُّنا كثيراً إن

كان هذا الحوار واقعيّاً أَم مصطنعاً إذ يكفينا ما فيه من أَفكار تستحقُّ وقفة تأَمُّلٍ وتفكير، وفيما يلي نصُّ الأُستاذ سعد صائب[٢]:

يقول: كلَّما أَنبأت نقَّاد الفن الغربيين ـ إبَّان رحلتي إلى أَوربا ـ بأَنَّ لدينا نحن كذلك فنّاً تجريديّاً يشاكل فنَّهم، ويوشك أَن يبزَّه بتهاويله، تولاَّهم الدَّهش، وأَخذت الحيرة منهم مأخذها، فمضوا يهتفون بي، وقد همُّوا بالابتسام الذي يشفُّ عن السُّخرية، وكأَنَّهم بذلك يشيرون إلى عيوب فنَّاننا ويضعونه مواضع الرِّيبة، بعد أَن شق عليهم منهجه، فيقول قائل منهم: «ثمَّة ظاهرتان لايخالجنا شكٌّ في أَنَّ فنَّانكم قد جهلهما؛ إحداهما: أَنَّ الفنَّ التَّجريدي لا يعدو ـ بالقياس إلينا ـ إرهاصاً من الإرهاصات التي ولَّدتها تطبيقات العلم الماديَّة، نجم عنه ردَّة فعل، لاتستهدف البتَّة المذاهب الفنِّيَّة التَّقليديَّة التي استهلكت نفسها، بقدر ما تستهدف خطر التِّكنولوجيا ـ التِّقانة[٣] الحديثة التي تستهلك اليوم إنساننا، ولم تؤد به إلى الغربة والضَّياع فحسب، بل كادت تخنقه بالخوف من المصير الذي يترصَّده ... لذا كان إحساسنا بهذا الخطر الذي يتهدَّد حضارتنا شديداً، بحيث اضطرَّ فنَّاننا إلى التَّعبير عنه بما يلائمه! ...

ومن عجبٍ أَن يتبنَّى فنَّانكم هذا الإحساس دون أَن يعانيه بصدقٍ كما نعانيه نحن، وكا درى أَنَّه سيظلُّ إحساساً زائفاً!...

(٢) ـ سعد صائب: لم تمت الحقيقة ـ منشورات الإدارة السِّياسيَّة ـ دمشق ـ د.ت ـ ص٧٦/٨٣.

(٣) ـ لفظة التقانة غير موجودة في الأَصل، وهي تعريب لمصطلح تكنولوجيا.

ومن عجبٍ كذلك أَنَّه تمادى في التَّعبير عنه دون أَن يضع في حسابه الظُّروف المأساويَّة التي نمرُّ بها ... وما علم أَنَّ هذا التَّعبير سَيُكْسِبُ فنَّه مظهراً زائفاً مهما برع فيه !...

والظَّاهرة الثَّانية: « أَنَّ تعقُّد كياننا الاجتماعي، ومصالحنا الأَكثر تنوُّعاً، تجيز لنا إدراك أَلوانٍ من الجمال ممتنعةٍ على حواس وإدراك شعبٍ يعيش في ظلِّ ثقافةٍ أَضيق أُفقاً ». وبدهيٌّ أَنَّ هذا الفن لا يوائمكم، ولا سيَّما أَنَّه يتكلَّب « ملكةً من التَّفكير خارج الوجود المتعيِّن »، كما يستلزم استعداداً وقدرةً، تعتبران من أَهمِّ جوانب الفكر الإنساني، ناهيك عن أَنَّه أَمسى جزءاً من تقاليدنا الثَّقافيَّة والفنِّيَّة التي تختلف عن تقاليدكم، وأَنَّه بالتَّالي يتأبَّى على من لم يكن ذا عقلٍ حضاريٍّ ناضجٍ كعقلنا، ورقيٍّ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ رائعٍ كرقيِّنا ... وعهدنا بكم أَنَّكم ما برحتم في طور «النُّمو» وما فتئتم تعيشون في ظلِّ ثقافة أَضيق أُفقاً من ثقافتنا !...

ويقول آخر: لئن توهَّم «فنَّانكم» أَنَّنا اصطفينا هذا الضَّرب من الفنِّ على «الكلاسيكيَّة» وسواها من ضروب الفنِّ ومذاهبه، رفضاً لها وإعراضاً عنها، وتجديفاً بها، لقد أَخطأ في وهمه، لأَنَّ «الكلاسيكيَّة» وأَخواتها لا تني حيَّةً فينا، وهي مقوِّمات تراثنا الفنِّي الغني، الذي لا ننفكُّ عتزُّ به ونفخر !...

وما كان أَخذنا بالفنِّ التَّجريدي إلاَّ إضافةً جديدة إلى تراثنا، بعد أَن أَدركنا أَنَّ حاضرنا قد تجاوزه ... وإن لم تعد مذاهبه الفنِّيَّة توائم أَذواقنا

ومعتقداتنا، لقد ظلَّت لمعاييرها قيمتها فينا، بعد تمثَّلناها في وجداننا ... ولا سيَّما أَنَّنا سرنا بالتَّجديد الفنِّيِّ بدءاً من البسيط المركَّب وليس العكس، كما نجم عن تحكُّمنا بطاقاتنا الفنِّيَّة لا من هدرها !...

ثمَّ يردف قائلاً: هب أَنَّنا أَعرضنا يوماً عن مذهب «التَّجريد» هذا وابتدعنا مذهباً جديداً آخر، أَو عدنا بالتَّالي إلى مذاهبنا الفنِّيَّة التي هجرناها ... أَتُرى سيُعرض فنَّانكم عن «تجريده» ويختار مذهبنا الجديد دون «سبق تمثُّلٍ لتأثيرات ممكنة» . كما يرى برجسون؟ . أَم تراه سيعود إلى مذاهبنا التي هجرناها وقد جهلها؟

أَلا يعني ذلك في الحالين . أَنَّه سينتهي إلى عجزه عن ابتكار أَيِّ مذهبٍ يضفي عليه لونه الخاص، ويحمل طابع شخصيَّته؟ هذا الطَّابع الذي سيعبِّر عنه، ويشهد له بحريَّته في ابتكاره؟

ويهتف ناقد ثالث: ويح فنَّانيكم، أَلم يبلغ سمعهم قول أَحد مفكِّرينا: « إنَّ في كلِّ إنسان غريزة عميقة، ليست هي غريزة الهدم، ولا هي غريزة البناء، ولكنَّها الرَّغبة في أَلاَّ يشبه شيئاً أَبداً » فيم ينفردون وحدهم إذن ؟ أَوَلا يعلمون أَنَّهم إنَّما يرمون إلى هدم فنِّهم الوليد لا إلى بنائه، وأَنَّهم يهدفون إلى تشويه « تجريدنا » لا إلى الابتكار فيه ؟

حبَّذا لو نقلت إلى فنَّانيكم نصيحتي: دعوا فنَّاني الغرب يبكون وحدهم مأساتهم، ولا تشاركوهم في بكائهم، لأَنَّ بكاءهم لما يزل له

صخبٌ مدوٍّ شبيه بصخبكم في بكائكم على مآسيكم، مما يزيد من مأساتنا، ولا ينجدنا في غربتنا، ويفرغ علينا الصَّبر !...

لذا عليكم في البدء أَن تستعيدوا مذاهبنا التي هجرناها، وتتمثَّلوا تأثيراتها الممكنة، لتفيدوا منها، وحذار أَن تغلوا في تقليد « تجريدنا » فلن يفيدكم !...

ومنذ أَن عدتُ إلى موطني، وأَنا أُجيل في ذهني هتاف الغربيين، بعد أَن مسَّ شغاف قلبي، فأُحسُّ بهزَّةٍ تسري في كياني، كلَّما طالعني « فنٌّ تجريديٌّ » يبدهنا به أَحد « فنَّانينا »، ثمَّ لا أَلبث إثرها أَن أَصيح مرغماً، بملئ فيِّ، وأَنا أَكتم حزناً دفيناً أَورثنيه هتاف النُّقَّاد بي:

أَترى يعلم هذا الدَّعيُّ أَنَّ الفنَّ تعبيرٌ عن حضارة الأُمَّة وحياتها الاجتماعيَّة والعقليَّة؟ وأَنَّ تطوُّره رهن بتطورهما وازدهارهما؟

أَتره يعي أَنَّ الابتكار فيه، لن يجيء إلاَّ من عقل الأُمَّة الحضاري، ورقيِّها الثَّقافي والاجتماعي؟

أَتراه يدرك أَنَّ إقباله على الأَخذ بنمط « الفنِّ التَّجريدي » دون تزوُّد أُمَّته بعقلٍ حضاري ناضج، ورقيٍّ ثقافي واجتماعي رفيع، لن يغني فنَّها بل يفقره، ولن يخصبه بل يفضي به إلى العقم؟

أَإذا راح الغربيون ـ وقد بلغوا بحضارتهم ورقيِّهم العقليِّ شأواً بعيداً ـ يطالبون فنَّانهم أَو شاعرهم بأَن تكون اللوحة أَو القصيدة « عيداً من أَعياد العقل »؟ أَفيجدر بفنَّاننا أَو شاعرنا، أَن يحذو مستحذياً حذو

فنَّانهم أَو شاعرهم؟ أَملزمٌ « فنَّاننا » خاصَّةً، بأَن يجسِّد في لوحاته أَعياد تغاير أَعياد أُمَّته؟ أَفلا يدلُّ صنيعه على أَنَّه إذا أَضاع نفسه، واضطرب في نهجه انتمى إلى عقلٍ حضاريٍّ واعٍ لم يبدع فيه، واحتمى برقيٍّ فنِّيٍّ رفيعٍ لم يسهم في تكوينه؟

والسُّؤال الذي لا ندحة لي عن طرحه:

علام يتهافت فنَّاننا إذن على هذه البدعة المدمِّرة، التي يصفها **بيكاسو** نفسه بأَنَّها « **صنعة العميان** »؟

أَوَيبتغي أَن يمسي أَعمى في « فنِّه » كيما « يجرِّد » عقل أُمَّته وحياتها من قيمتهما؟ أَم يبتغي أَن يحطِّم هذه القيمة أَو يلغيها، بعد أَن أَثبت عجزه عن تكوين هذا العقل، ودلَّ على تقاعسه في التَّعبير عن تلك الحياة ؟...

من يدري لعلَّه بصنيعه هذا، إنَّما يقتدي « بحكمة الخضوع . للغرب . الخضوع النِّهائي » . على حدِّ تعبير إليوت . !...

أَلا ليته يعلم أَنَّ «تجريده» الذي ينهد له اليوم . والخلق الفنِّي لـمَّا ينضج بعدُ لدى أُمَّته . دلالة على جهله نفسه، واضطرابه في نهجه، ونسيان وظيفته، وتنكُّره لعقل أُمَّته، وانسلاخه من حياتها !...

لكأَنِّي . وأَنا أَشهد المحنة تلمُّ بفنِّنا . أَستمع إلى عقل أُمَّتي . بعد أَن عاداه «فنَّاننا» وخفر ذمَّته، ولـمَّا يزل في طور نشأته . وهو يتَّهمه بتخلِّيه عنه، ويدينه بوهن إحساسه بحقيقته !...

لكأنِّي . وأَنل أَرنو إلى حياتنا . بعد أَن انفصم عنها «فنَّاننا» وخان عهدها، ولـمَّا تبرح في بدء تفتُّحها ونموِّها . وهي تؤاخذه على غموض رؤيته، وضياع هويَّته، ونأيه عن رسالته !...

لكأنِّي بعقل أُمَّتي وحياتها، بعد أَن تقطَّعت الأَسباب بينها وبين «فنَّاننا التَّجريدي» وأَلفينا أَنَّهما افتقدا في صنيعة حقيقتهما، لخلُّوه من معناها وتفريغه من محتواها، يمضيان مستغيثين، ودموعهما تنهمر على خدَّيهما دائبةً لا تهدأ أَو ترقأ، بعد أَن استشعرا رزأهما العميق في فنِّه:

حنانيك أَيُّها الفنَّان !

إنَّ كُنَّا حقَّاً جديرين «بتجربتك» فلا تشكَّ فينا، أَو تُعرِض عن ظروفنا، بل اعرف حقيقتها، وافهمها، وتعاطف معها، وعشها في وجدانك، ثمَّ اسمُ بها في فنِّك !...

حنانيك أَيُّها الفنَّان !

عُدْ إلينا ... رحمةً بنا ... وحناناً علينا!

وتذكَّر قول شاعرنا:

فيا موقـداً ناراً لغيرك ضوءها

ويا حاطباً في غير حبلك تحطبُ(٤)

(٤) . البيت للشاعر الكميت بن زيد الأَسدي . ٦٧٩م/٧٤٣م.

على جلاء كلام أُستاذنا الكبير سعد صائب، ونصاعة بيانه، وإشراق فصاحته؛ الواضحة الأَفكار والأَهداف، لا نعدم أَن نجد جانحاً إلى سوء الفهم أَو حاالاً على الكلام أَكثر من أَحماله، فيحسب أَنَّ أُستاذنا يمجِّد العقل الغربي ويحطُّ من قدراتنا العقليَّة، أَو يتوهَّم أَنَّه يريدنا أَن نقطع كلَّ صلةٍ لنا بالغرب، ويرفض أَن نستورد أَفكاره، والحقُّ أَنَّ هذا جنوحٌ عن مقاصد الأُستاذ سعد، وتمسُّكٌ بأَهداب الوهم، فلا النَّصُّ السَّابق يرمي إلى ذلك أَو يوحي إليه ولا سائر فكره وآثاره. ومهما يكن من أَمر فإنَّ الأُستاذ سعد في هذا النَّصِّ يتحدَّث بلسان ا لعقليِّة الغربيَّة ونمطيَّة تفكيرها بما تحمله من أَفكار حول الشَّرق.

الحــداثة أصــالة(*)

(*) . نشر هذا الفصل في صحيفة الثَّقافة الأُسبوعيَّة . دمشق . العدد ٣ السَّبت ٢٠ شعبان ١٤١٥ هـ الموافق لـ ٢١ كانون الثَّاني ١٩٩٥م.

كفانا تهرُّباً من ظلالنا، كفانا تخفِّياً بين الياقات والنَّظَّارات الملونة، كفانا تنصُّلاً من مسؤوليَّاتنا، كفانا كفانا ما فينا من عقد النَّقص والقصور، لنلتفت إلى واقعنا ونتعرَّى أَمام أَنفسنا؛ نحن لانريد أَن نقطع صلاتنا مع أَحدٍ أَبداً، ولكن من المعيب الشَّائن جدَّاً أَن نرتبط بالآخر أَوثق الارتباط ونقطع صلتنا مع أَنفسنا، تلكـم هي المشكلة، علينا أَن نفهم أَنَّ الحداثة أَصالة، وأَنَّ الأَصالة حداثة.

ليست العودة إلى التُّراث كما يتوهَّمُ بعضهم ميلاً إلى التَّشرنق والانغلاق، ولا عجزاً عن تجاوز الحاضر كما يحاول المتفيقهون أَن يصوِّروا، وإنَّما هي عودةٌ إلى الجذور كيلا تقتلعنا الأَرياح، وكشفٌ عن المعالم المضيئة في ماضينا، لنفخر بها وذا حق، ولنتمَّ بناءها وذا واجب، وهذا ما لم نجد أُمَّةً في الأَرض تكفر به أَو تجحده ولو ساء ماضيها.

نعم، نحن لا نشكُّ في أَنَّ حقَّ التَّحديث ومسؤوليَّته أَمران مناطان بالنَّوابغ من المبدعين، ولا بأس من الإناطة بالمبدعين على العموم. التَّحديث في إطاره المعرفي الدَّائر عليه الحديث هنا، لا بالمعنى المبتذل المميَّع. على أَنَّنا نقصد بالمبدع: الموهوب، الملهم، المحتكم على ملكة الابداع والخلق الفنِّيِّ، ولا نُدرج في حكمنا الأَدعياء والزَّائفين: زاعمي امتلاك المواهب، الواهمين أَنَّ ما يتفيقهون به إبداعاً.

ولكن، أَليس من منارةٍ تهدي المبدعين التَّحديثيِّين السَّبيل؟ بل لنقل باللفظ الموضِّح للمعنى: أَيجوز أَن يكون التَّحديث هكذا خبط عشواء، من غيرما قيدٍ ولا شرط؟

بدايةً نزعم أَنَّه لا قيد ولا شرط على التَّحديث، لسببين على الأَقل؛ أَوَّلهما أَنَّه لايصحُّ إلا فعلاً الصَّحيح، ولا يدوم إلا الأَقوم، والتَّاريخ، عَبر المجتمع، وحده كفيلٌ بتصفية الشَّوائب والنَّكرات. وثانيهما أَنَّ المبدع النَّزَّاع

إلى التَّجديد وابتكار ما لم يُسبق إليه، والإتيان بما يثير الانتباه ويلفت الأَنظار ليس محكوماً بقاعدةٍ أَو قانون، ولا ينظر المبدع حواليه كثيراً. حين يقوم بذلك. ولا يرجع إلى المبادئ والقواعد والأُصول؛ الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والنَّفسيَّة والأَخلاقيَّة والجماليَّة، ليس بمعنى عدم الاكتراث وإنَّما لأَنَّ الدَّفقة الإبداعيَّة هي التي تقود نشاطه الإبداعي.

ومهما يكن من أَمر فإنَّ المشكلة محلولة في لغتنا العربيَّة حلاًّ بديعاً من حيث المزاوجة في معنى الأَصالة بين دلالتين تتخذ كلٌّ منهما منحًى مستقلاًّ، ليصبَّ المنحيان في إطار واحدٍ يكامل المعنى ويحلُّ لنا هذه المشكلة.

يُقصد بالأَصالة أَحد معنيين قلَّما يجتمعان معاً وإن كانا متلازمين متكاملين ينبثق أَحدهما من الآخر انبثاق النَّبتة من البذرة؛ فهي إمَّا تعني التَّجذُّر أَو تعني الجِدَّة كلٌّ حسب سياق الكلام. فالأَوَّل موضوعه السَّابق أَو الماضي؛ ويهدف إلى سبر العراقة والتَّجذُّر في الماضي. والثَّاني يتَّخذ الحاضر والمستقبل موضوعاً، ولكن بالمقارنة مع الماضي بالضَّرورة. وبهذا المعنى نجد أَنَّ الأَصالة والحداثة دلالتين لمضمون واحد هو السَّيرورة التَّاريخيَّة لوقائع مجسَّدة من قبل الإنسان، ينبثق تَجَسُّدُ حاضرها من ماضيها، ومستقبلها من حاضرها، لتغدو الحداثة بذلك أَصالة الحاضر، أَمَّا الحداثة التي لا تستمدُّ مسوِّغات وجودها من جذورها التي تأَصَّلت في تربتها فليست من الأَصالة في شيء، ولذلك لن تكتب لها الدَّيمومة.

إنَّ هذه الازدواجيَّة الدَّلاليَّة لمصطلح الحداثة الذي يصرُّ على التَّمسُّك بالجذور من جهة وئوشِّر إلى الابداع والتَّجديد المرتبط بالحاضر المتوجِّه إلى المستقبل من جهة ثانية، يؤدِّي إلى سقوط ثنائيَّة الأَصالة والحداثة؛ هذه الثُّنائيَّة التي تقيم تقاطباً وتحارباً بين الأَصالة والحداثة من حيث أَنَّ الأُولى ترنو إلى الماضي والثَّانية تشرئبُّ إلى المستقبل، وكأَنَّ الاتجاهين متفاصلين لا ارتباط بينهما ولا تداخل. وقد بدا لنا تهافت هذا الادِّعاء وهشاشته، وإن لم يكن ذلك تماماً، فإنَّنا نقصد بالحداثة الأَصالة وبالأَصالة الحداثة، بمعنى أَنَّ حداثةً من غير أَصالة أَمرٌ غير وارد ولا مقبول لأَنَّها حداثة مبتورة، وأَصالة من غير حداثة أَيضاً غير مقبولة لأَنَّها ستكون منقوصة غير كافية ولا وافية، ومصطلح الأَصالة قد حلَّ هذه المشكلة بحدِّ ذاته من حيث ازدواجيَّته الدَّلاليَّة التي حملت معنى الجِدَّة والتَّجديد والإبداع من جهة، ومعنى الانطلاق من الجذور والأُصول من جهة ثانية، لتغدو الحداثة أَصالة والأَصالة حداثة.

والحقُّ الذي لا يمكن جحوده أَو نكرانه أَنَّ العودة إلى التُّراث ليست كما يتوهَّمُ بعضهم ميلاً إلى التَّشرنق والانغلاق على الذَّات، ولا عجزاً عن تجاوز الحاضر كما يحاول المتفيقهون أَن يصوِّروا، وإنَّما هي عودةٌ إلى الجذور كيلا تقتلعنا الأَرياح، وكشفٌ عن المعالم المضيئة في ماضينا، لنفخر بها وذا حق، ولنتمَّ بناءها وذا واجب، وهذا ما لم نجد أُمَّةً في الأَرض تكفر به أَو تجحده حتَّى ولو ساء ماضيها.

بل مهما تكن العودة إلى التُّراث ينبغي أَن تكون تمهيداً للإنطلاق والانعتاق، لأَنَّنا إذا بحثنا عن المثالب والمعايب والأَخطاء والعثرات فيجب أَن تكون غايتنا من ذلك تلافيها واتِّقاءها لا الهزء والتَّفكُّه والتَّندُّر بأَسلافنا، فليس من أُمَّةٍ في الأَرض كاملة من غيرما أَيِّ عيب، وإذا بحثنا عن الجوانب المشرقة المشرِّفة يلزم أَن نتمثَّلها ونتجاوزها إلى أَفضل منها وأَسمى وأَشرف لا أَن نتغنى بها ونتوقَّف عندها مباهين بسبقنا الشَّرق والغرب بها.

إنَّنا لا نقول ذلك من باب التَّعصُّب لتراثنا وأَسلافنا، وإنَّما هي دعوة إلى الأَصالة والعودة إلى التُّراث. ولقد بات من الثَّابت الأَكيد أَنَّ العودة إلى التُّراث والدَّعوة إلى الأَصالة تشكِّلان ركنا جوهريَّاً من أَركان نهوض الأُمَّة؛ أَيِّ أُمَّة، اللهمَّ على أَلاَّ يفهمان فهماً خاطئاً، إذ كثيرون أُولئك الذين لا يفهمون من العودة إلى التُّراث والدَّعوة إلى الأَصالة إلاَّ أَنَّهما رجعيَّةٌ أَساسها الانغلاق على الذَّات ومحاربة كلِّ حداثةٍ وتطوُّر، وفي هذا الفهم كثيرٌ جدَّاً من المغالطة والتَّجنِّي.

إنَّ العودة إلى التُّراث والدَّعوة إلى الأَصالة تعنيان فيما تعنيان الكشف عن مقوِّمات الأُمَّة وتبيان معالم شخصيَّتها التي تمثِّل عماد ديمومتها، ذلك أَنَّ الأُمَّة إنَّما هي ديمومة الماضي والحاضر والمستقبل، أَي إنَّها تستمدُّ مقوِّمات حاضرها من ماضيها، وتسوِّغُ مستقبلها بناءاً على حاضرها. وهي ما دامت على ذلك تظلُّ قائمةً تستطيع الصُّمود أَمام

مختلف التَّحدِّيات والعقبات التي تعترض سبيلها، وبالتَّالي فإنَّ اندثار الأُمَّة أَو انقطاعها عن الوجود ليس يعني فقط تلاشي أَفرادها وانقطاع كينونتهم، بل يعني فيما يعنيه أَيضاً انسلاخ الأُمَّة عن ماضيها وذوبانها في شخصيَّة أُمَّة أُخرى، وهذا ما يمكن أَن نسمِّيه الاغتراب بمعنى أَو بآخر.

قد يتنطَّع متشدِّقٌ فيقول: أَنغمض أَعيننا ونتناسى كلَّ التَّطوُّرات والإنجازات التي قدَّمها الغرب ونعود إلى بنائها من جديد؟

قطعاً لست أَعني ذلك بأَيِّ معنًى من المعاني، فإنَّ الإنجازات الحضاريَّة لأَيِّ أُمَّةٍ ملكٌ للإنسانيَّة جمعاء، وبالتَّالي فليس لنا الادِّعاء بأَنَّنا أَحقُّ بما ما قدَّمه **ابن الهيثم** و**ابن سينا** من غيرنا، كما لا يحقُّ للفرنسيين الادِّعاء بأَنَّهم أَجدر بما قدَّمه **ديكارت** من غيرهم، وغير هؤلاء من المفكِّرين والعلماء والفلاسفة ... وبأَخذ هذا بعين الاعتبار نعني مما أَسلفنا أَنَّ مستقبل يجب أَن ينبثق من حاضرها انبثاق النَّبتة من البذرة، كما يجب أَن ينبثق حاضرها من ماضيها حتَّى تظلَّ هي هي.

وعلى الرُّغم من ذلك كلِّه يصرُّ كثيرون على الاعتقاد بأَنَّ الحداثة والتَّجديد يتمثَّلان بامتثال كلِّ بدعةٍ تتفتَّقُ عنها العقليَّة الغربيَّة، ضاربين الصَّفح عن جذورها وأُصولها، وعن مدى قربها أَو بعدها عن تراثنا الحضاري وعن حاضرنا ومستقبلنا. والمصيبة العظمى هنا هي في إغضاء هؤلاء الأَدعياء الطَّرف عن الجوانب المشرِّفة التي ينبغي اقتباسها وتقليدها؛

ومن ذلك أَنَّا لم نجد بين ظهرانينا من يدعو إلى تقليد أَوربا الوسطى والحديثة والمعاصرة في عودتها إلى تراثها اليوناني وتمسُّكها به وتنكُّرها (للشَّوائب) الغريبة في فكرها وعلومها، وكذلك لم نجد الآن من يدعو فرنسا وأَلمانيا وإنجلترة وغيرها في تمسُّكها بلغتها وتحصينها ضدَّ المفردات الأَجنبيَّة الدَّاخلة عليها، وفي ردع أَصحاب الرَّطانة، بل إنَّ مِن مفكِّرينا مَن يدعو إلى تقويض دعائم لغتنا والكتابة بالحرف اللاتيني. وفي حين أَنَّ بدع وضلالات الحداثة مُحاربةٌ في البلدان التي نشأت فيها نجدنا هنا نحيي ما أَماته الغربيون، ونقلِّد بدعهم التي يحاربونها، ونحذو خطوها حذو الحافر بالحافر. إنَّها حقَّاً مشكلة.

ولكن، ما رأَيكم لو نبحث في جذور هذا الاعتقاد الخاطئ والسُّلوك الأَعمى؟

سيبدو كلامنا دفاعاً عن هذا السُّلوك والاعتقاد، وهو ليس كذلك، إنَّه مجرَّد تحليلٍ علميٍّ قمنا به لدى حديثنا عن علَّة طول الجدال في الحداثة بتفصيل وتوسُّع، ولا بأس من عودٍ إلى ذلك، ولكن بنحوٍ آخر.

خصَّ **ابن خلدون** في مقدِّمته فصلاً غير مطوَّلٍ لمعالجة هذه المشكلة جعل عنوانه: « في أَنَّ المغلوب مولعٌ أَبداً بالاقتداء بالغالب » والعنوان وحده . فيما أَعتقد ـ كافٍ لتبيُّن أَبعاد المشكلة، فالتَّقليد آليَّةٌ نفسيَّة لاشعوريَّة، وقد تكون شعوريَّة، تقود

المرء من حيث لا يدري إلى اقتفاء خطى من يظنُّ أَنَّهم أَفضل منه أَو أَقوى أَو أَعلم ... فيحسب أَنَّ كلَّ ما يصدر عن هؤلاء هو الأَقوم والأَمثل من غيرما نقدٍ أَو تفكير. ولذلك سنقلِّد الغرب شئنا أَم أَبينا، وسنقتفي خطاهم في كلِّ ما تتفتَّق عقليَّاتهم عنه، وسنلهث على الأَخصِّ وراء ما يسدُّ عقد نقصهم ويوهمنا بأَنَّنا مثلهم نستطيع أَن نتفرَّغ للعبث واللهو، وفي مُكنتنا أَن نعمل كالذي يعملونه. ولأَنَّ التَّقليد من الآليات أَو الحيل الدِّفاعيَّة، الهروبيَّة، التَّملُّصيَّة، سيقودنا إلى الإغضاء عمَّا نعجز عن فعله، وإلى غضِّ الطَّرف عن الإنجازات التِّقنيَّة الهائلة لنتمسَّك بقشورٍ سهلة الاجترار كالسِّرياليَّة والتَّجريديَّة والرَّمزيَّة وغيرها. أَمَّا أَن نهضم تراثنا بشكلٍ صحيحٍ وننطلق منه كما فعلوا فهذا مشكلةٌ تستعصي على الحل، وكذلك شأن الصِّناعة والإبداع وصياغة نهضةٍ علميَّةٍ حقيقيَّة ... كلُّها مسائل مجهدة تتهرَّب منها عقليَّتنا الانهزاميَّة المتخلِّفة؛ نتملَّصُ منها لاشعوريَّاً ونلهث وراء ما ليس يجدي، بل وراء ما يبرِّر انهزاميَّتنا وقصورنا وتخلُّفنا، ونلقي تبعات عدم جدارة عيشنا على أَسلافنا، وسنظلُّ نلعن الأَسلاف ونُلقي عليهم اللوم ونحمِّلهم مسؤوليَّة تخلُّفنا وجهلنا وبعدنا عن قطار الحضارة، وكأَنَّ هذا اللعن والشَّتم أَو التَّملُّص من التُّراث هو وحده الذي سينهض بنا.

كفانا تهرُّباً من ظلالنا، كفانا تخفِّياً بين الياقات والنَّظَّارات الملونة، كفانا تنصُّلاً من مسؤوليَّاتنا، كفانا كفانا ما فينا من عقد النَّقص والقصور، لنلتفت إلى واقعنا ونتعرَّى أَمام أَنفسنا، نحن لا نريد أَن نقطع صِلاتنا مع أَحدٍ أَبداً، ولكن من المعيب الشَّائن جدَّاً أَن نرتبط بالآخر أَوثق الارتباط ونقطع صلتنا مع أَنفسنا، تلكم هي المشكلة، علينا أَن نفهم أَنَّ الحداثة أَصالة والأَصالة حداثة.

الحـــداثة نسـبيـّة(*)

(*) . نشر هذا الفصل في صحيفة الثَّقافة الأُسبوعيَّة . دمشق . العدد . ٤ . السَّبت ٢٧ شعبان ١٤١٥هـ الموافق لـ ٢٨ كانون الثَّاني ١٩٩٥م.

لقد ظنَّ حداثيونا أَنَّ كل ما ينبو عن ذوق النَّاس والعصر إنَّما هو نتاج عبقريَّة سبقت زمانها وظلمت بولادتها بين الجهَّال الذين لا يقدِّرونها حقَّ قدرها، لقد ظنُّوا أَنَّ كلَّ ما ليس يفهمه النَّاس سيكتب له الخلود، وسيقيِّض الله له أُناساً يفهمونه في العصور اللاحقة ويقدِّرون لأَصحابه صبرهم على جهل أَهل زمانهم وحمقهم. لو كان المعيار هو الذي يحاكمون به فعلاً لكان المجانين وقطَّاع الطُّرق والحمقى والمغفَّلون .... كلهم عباقرة.

لكلِّ زمان ظروفه ومعطياته واحتياجاته وخصائصه، فما صلح لزمان ما لا يكون بالضَّرورة صالحاً لكلِّ زمان، وبالتَّالي فليس كلُّ محدثٍ مخلداً على الزَّمان غير قابل للتَّجاوز أَو الاهتلاك والتلف. وما لفَّ الزَّمان بحكمه لا يُفلت المكان من طوقه، فما صلح في مجتمع لايكون صالحاً بالضَّرورة في أَيِّ مجتمع آخر، أَو مجتمع بعينه.

صحيحٌ أَنَّ النِّسبيَّة تبلورت نظريَّةً على يدي **إينشتين** إلاَّ أَنَّها في الحقيقة واقعٌ رافق نشاط الإنسان وسلوكه منذ وجوده على سطح هذه الأَرض، وفكرةٌ لم تبرح عقله، وإن لم تتجسَّد في نظريَّةٍ فكريَّة أَو علميَّة على نحو ما حدث في عصرنا.

والحداثة إحدى الممارسات والمفاهيم التي تلتحف بالنِّسبيَّة وتسير بمقتضاها، ولذلك من الضَّرورة بمكان أَن نبسط أَبعاد العلاقة بين الحداثة والنِّسبيَّة، وإن كنَّا صادرنا على المطلوب من خلال العنوان الذي وصف الحداثة بأَنَّها بالنِّسبيَّة.

وقبل الولوج إلى مرادنا من المستحسن فيما أَعتقد تبيان أَنَّه لكشف الأَواصر بين الحداثة والنِّسبيَّة أَهمِّيَّة كبرى من حيث تجلو لنا وجهاً من أَوجه الحداثة المرادة والرغوبة، بل تجعلنا على بيِّنةٍ أَكبر من أَبعاد الحداثة ومضامينها، ولتكون بمثابة هدي لمغرمي التَّحديث والنَّزَّاعين إليه.

تتسم الحداثة، إلى جانب محمولاتها ومضامينها الكثيرة، بالنِّسبيَّة، وهذه النِّسبيَّة، إلى جانب تعدُّديتها وتنوُّعها، نسبيَّةٌ أَيضاً؛ فهي، أَي الحداثة، ليست مطلقةً من أَيِّ قيد ولا محدودة بقيدٍ يلزمها اتِّخاذ مسارٍ بعينه؛ إنَّها نشاط إنساني نوعيٌّ مرتهن بجملة من العلائق التي تفتح أَمامه السُّبل وتقود وجهته، وهذه العلائق متعدِّدة الأَنواع، متباينة المستويات؛ فضرب منها منسوب إلى المبدعين وخصوصيَّاتهم الشَّخصيَّة والفكريَّة ونوعيَّة إبداعهم، والضَّرب الآخر متواشجٌ مع الحاضنة الزَّمكانيَّة والفكريَّة التي تمُّ الحداثة ضمن أُطرها.

ترتبط الحداثة أَوَّل ما ترتبط بمبدعها ذاته من تعبير عن غاية محدَّدة يرنو إليها هذا المبدع. ومن ذلك نجدنا أَما النِّسبيَّة الأُولى للحداثة، فلكلِّ مبدعٍ غاياته وأَغراضه ومآربه الخاصَّة التي تقف وراء خَرْقِه للمألوف والمعتاد بحداثته، أَو لنقل بما ابتدعه.

غير خافٍ هنا أَنَّ المرنو إليه من التَّحديث غير واحدٍ، فقد تتضافر جملة من الأَسباب في حفز المبدع على اختلاق المحدث، ولكنَّ عاملاً واحداً على الأَقلِّ هو الذي يقف وراء ذلك كلِّه بصورة إن لم تكن مباشرة فهي شبه مباشرة. ومن ذلك على سبيل المثال داعي الزُّهوِّ وحبُّ التَّميُّز والرَّغبة في الشُّهرة والميل إلى التَّغيير، وربَّما كان يُغرِض إلى الإفساد والتَّخريب، أَو اللهو والعبث، ولا غرابة أَبداً في أَن يكون متواشجاً مع خلفيَّة عقائديَّة (أَيديولوجيا) معيَّنة: سياسيَّة أَو دينيَّة أَو فلسفة ما.

ولذلك ليس من الضَّروري أَن يكون المُحْدَثُ ذاته مستنداً إلى البواعث ذاتها لدى صدوره عن أَكثر من مبدع، أَو عند تبنِّيه من أَكثر من واحدٍ أَو اتجاه، فقد يؤدِّي المُحْدَثُ ذاته أَغراضاً أَو أَهدافاً متعدِّدة، وربَّما تكون متباينة الاتجاه أَو متناقضة، ولذلك نجدنا مصرِّين على الكشف عن الخلفيَّة التي أَبزغت المحدث وحضنته، وعلى ضرورة معرفة أَبعاده ومراميه قبل أَن نحمله على عاتقنا ونتبنَّاه كيلا نسلك مسالك نندم عليها فيما بعد. وقد حدث مثل ذلك فعلاً لكثيرٍ من مفكِّرينا الذين ركبوا تيَّارات حداثيَّة معيَّنة لم يقفوا على حقيقتها وأَبعادها بادئ الأَمر، ثمَّ عضَّوا أَصابعهم ندماً وتراجعوا عمَّا أَقدموا عليه واقترفوه بحقِّ أَنفسهم، وربَّما عَظُمَ على بعضهم التَّراجع عمَّا تورَّطوا فيه فأَصرُّوا على المعاندة والكبر، وظلُّوا راكبين تيَّارات تسير عكس الرِّياح تخالف منطق العصر، ولا حاجة لذكر الأَسماء فالمتتبِّعون يعرفون، وغير المتتبِّعين بغنًى عن ذلك.

والحداثة نسبيَّةٌ أَيضاً من حيث ترابطاتها الزَّمكانيَّة والفكريَّة؛ جملةً وتفصيلاً. فلكلِّ زمانٍ ظروفه ومعطياته واحتياجاته وخصائصه، فما صلح لزمان ليس يصلح بالضَّرورة لكلِّ زمان، دون نفي الإمكانيَّة، وبالتَّالي فليس كلُّ محدثٍ مخلَّداً على الزَّمان، غير قابلٍ للتَّجاوز أَو الاهتلاك والتَّلف. هذا من حيث الزَّمان والحقُّ أَنَّ المكان لا يختلف أَبداً من حيث مبدأ هذه العلاقة عن الزَّمان، فما صلح في مجتمع لا يكون بالضَّرورة صالحاً لكلِّ مجتمع أَو لمجتمعٍ آخر بعينه، دون نفي الإمكانيَّة أَيضاً.

ترتبط الظُّروف الزَّمكانيَّة مع المعطيات الفكريَّة ترابطاً تلازميَّاً عسير الانفكاك، الأَمر الذي يضفي على الحداثة نسبيَّتها الخاصَّة التي ربَّما تفترق عن غيرها من النِّسبيَّات: إنَّ المعطيات الفكريَّة لمجتمع ما في زمنٍ ما هي التي تحدِّد متطلَّبات هذا المجتمع وآفاق تقبُّله للمحدثات وكيفيَّات تعامله معها؛ فالخصائص الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والجماليَّة والأَخلاقيَّة والدِّينيَّة ... تختلف من مجتمعٍ إلى آخر ومن أُمَّةٍ إلى أُخرى، ويتباين ذلك كلُّه من فترةٍ زمانيَّة إلى أُخرى. وهذه العوامل كلُّها متداخلةً متكاملةً هي التي تقود المبدعين عَبْرَ علاقةٍ جدليَّةٍ إلى التَّحديث والإبداع، والتَّحديث والإبداع على عمومها قد يتوافقان مع المعطيات والعوامل السَّابقة كلِّها فيدخلان معها في عمليَّة بنائيَّة مبدعةٍ خلاَّقة تتمكَّن من قيادة المجتمع والأُمَّة إلى مزيد النَّماء والتَّطوُّر، وتجاوز العقبات والعثرات والأَخطاء ... وقد يتخلَّف التَّحديث والإبداع عن حاجات هذا المجتمع، في إطاره الزَّمكاني/الفكري، فإذا ما كان هذا التَّخلُّف أَعظميَّاً انعكس في البنى الاجتماعيَّة والمؤسَّسات المختلفة، فيقود إلى الرُّكود والتَّململ، ومن ثمَّة إلى التَّراجع والتَّقهقر. نعم، التَّقهقر إلى الوراء، فلا غرابة في أَن يكون مجتمع ما على درجة عاليةٍ من الرُّقي الفكري والعلمي والجمالي والأَخلاقي ... ثمَّ يصبح على أَردى حال. وإذا كان هذا التَّخلُّف في التَّحديث والإبداع من فئةٍ قليلة غير مؤثِّرة فإنَّ أَنصارهم وحدهم هم

الذين ستحمَّلون في النَّتائج الأَغلب، وهي الانغلاق على الذَّات والرَّفض من الآخرين.

وآخيراً قد يكون التَّحديث والإبداع سابقاً عصره، وهذا ما لا يكون إلاَّ في القليل النَّادر جدَّاً، والذين سبقوا عصورهم في إبدعاتهم قلَّةٌ معدودةٌ على الأَصابع. إنَّ مثل هذا التَّحديث والإبداع يكون في الأَغلب الأَعمِّ نابياً عن ذوق عصره، بل لنقل: يضيع حقُّه بين معاصريه، ولقد زعم حداثيوننا أَنَّ حداثتهم من هذا النَّوع، فهل يعقل هذا ؟! إنَّ العباقرة الذين سبقوا عصورهم بإبداعاتهم عبر التَّاريخ كلِّه معدودون بالعشرات القليلة، أَما حداثيونا العباقرة فإنَّهم غير معدودين، لا يحصيهم إلا الذي خلقهم لكثرتهم الكاثرة، بل الكاسرة.

لقد ظنُّوا أَنَّ كلَّ ما ينبو عن ذوق العصر نتاج عبقريَّة سبقت زمانها وظُلمت بولادتها بين الجهَّال الذين لايقدِّرونها حقَّ قدرها. لقد ظنُّوا أَنَّ كلَّ ما ليس يفهمه النَّاس سيكتب له الخلود، وسيقيِّض الله له أُناساً يفهمونه في الصور اللاحقة، ويقدِّرون لأَصحابه صبرهم على جهل أَهل زمانهم وحمقهم، قائسين أَنفسهم على التَّوحيدي وليوناردو دي فنشي ومحمد القصبجي ... ناسين ومتناسين أَنَّه لو كانت الأُمور على النَّحو الذي يقيسون عليه، وبالمكيال الذي يكيلون به لكان المجانين وقطَّاع الطُّرق والشُّطَّار والحمقى

والمغفلون ... كلهم عباقرة، ولكانت قلَّة الذَّوق وانعدام الحياء والأَدب أَحد أَهمِّ ضروب العبقريَّة.

ينبغي أَن ننفض الغبار عن وجوهنا، ونجلو صدأَ أَذهاننا، ونفتح أَعيننا وننظر إلى الشَّمس حتَّى نتمكَّن من رئية النُّور، يجب أَن نتعلَّم كيف نعامل أَنفسنا أَوَّلاً، وكيف عامل الآخرين ثانياً، فما أَجمل قولهم: **رحم الله امرأً أَهدى إليَّ عيوبي**، وما أَبدع مقولة: **عامل النَّاس كما تحبَّ أَن يعاملوك.**

لماذا طال الجدال في الحداثة؟(*)

التخـــلُّف

(*) . نشر هذا الفصل في جريدة الثَّقافة الأُسبوعيَّة . العدد ٣٥ . السَّبت ٢٨ ربيع الآخر ١٤١٥ هـ الموافق لـ ٢٣ أيلول ١٩٩٥م.

التَّواصل الحضاري شبه ضرورةٍ منطقيَّة؛ إنَّنا ملزمون بالتَّأثُّر رغم أُنوفنا، فإن لم يخطِّط المتقدِّمون علينا لغزونا بهذه المسائل لاندفعنا بأَنفسنا إلى الانجراف في تيَّاراتهم من غيرما تخطيط ولا هدى، بمعنى أَنَّهم لو لم يقوموا بغزونا لغزونا أَنفسنا بأَسلحتهم. فلماذا الجدال وكثرة القيل والقال؟! إنَّه الخوف والحيرة والضَّياع .... إنَّه التَّخلُّف، التَّخلُّف الذي يغلِّف الأَبصار والبصائر، ويستنبت في مستنقع القلق المصائر.

على الرُّغم من انقضاء سحابة القرن ونصفه على بداية مشروعنا التحديثي فإنَّنا لم نزل وكأَنَّنا أمام نقطة الانطلاق؛ ما زلنا حائرين مترددين؛ ننظر إلى الخلف وننظر إلى الأَمام، ونضرب كفاً بكف، ونتساءل بسذاجة: هل ننخرط في المشاريع التحديثية ونسير في ركبها، أَم نرفضها وننكفئ على تراثنا.

على رغم تأَريخ دخول **نابليون** إلى مصر بدايةً لمشروع التَّحديث العربي من حيث أَتاح الاتصال بالعالم الخارجي بعد فترة من النَّوم في أَحضان الذَّات، طويلة، فقد ذهب فريقٌ آخر من المؤرِّخين إلى اعتبار **رفاعة الطَّهطاوي** صاحباً لأَوَّل مشروعٍ تحديثيٍّ عربي، فقد عايش ثورة ١٨٣٠م الفرنسيَّة وعاد ليبشِّر بثورة مماثلة في مصر؛ فطالب بتحرير المرأة وتحرير الشَّعب وإحقاق الحق وإقامة العدل والنُّهوض من ركام التَّخلُّف. وأَيَّاً كان الأَمر فإنَّ أَكثر من ستَّة عشر عقداً قد مضت على بداية أَزمة الحداثة بين ظهراني العرب، ولم نزل حتَّى الآن وكأَنَّنا أَمام نقطة الانطلاق؛ حيرةٌ وتشتُّتٌ وضياع، وتمركزٌ حول الذَّات وتعصُّبٌ وانغلاق، وتخلُّفٌ وجهل .... ما زلنا حائرين متردِّدين؛ ننظر إلى الخلف وننظر إلى الأَمام، ونضرب كفَّاً بكف، ونتساءل بسذاجة: هل ننخرط في المشاريع التَّحديثيَّة ونسير في ركبِّها، أَم نرفضها وننكفئ على تراثنا؟

لو وقفت المشكلة عند هذا الحد لاقتصرت المسألة على كونها أَزمة عابرة. **الخطورة في الأَمر** . وهذا ما أَحال الحداثة إلى معضلةٍ تبدو مستعصيةً على الحل. **أَنَّنا حتَّى الآن لم نتَّفق على معنى الحداثة ومضمونها وأَبعادها وحقيقتها،** فكلٌّ يهيم في وادٍ إلا وديان التَّلاقي فقد ظلَّت مهجورة. ولذلك ما زال الجدال والسِّجال حول هذه المسألة قائماً على قدمٍ وساق؛ بين أَخذٍ وردٍّ، وكرٍّ وفر.

فلماذا طال الجدال في الحداثة ؟

الحقُّ أَنَّ ردَّ طول الجدال وكثرته في هذه المسأَلة النِّسبيَّة؛ القديمة الحديثة بآنٍ إلى عاملٍ محدَّدٍ، أَو إطار واحدٍ من العوامل، أَمرٌ لا يخلو من قصر النَّظر. ومهما عدَّدنا من عوامل وأَسباب فسنظلُّ نجد أَن في المسألة نظراً، ذلك أَنَّ هذا الجدال ليس قصراً على العالم العربي أَو الشَّرقي، وإنَّما الغرب له في ذلك أَيضاً حظٌّ وفير، على رغم القرون التي خلَّفها الغرب وراءه على بداية مشاريعه التَّحديثيَّة.

وانطلاقاً من هذا الاعتبار سنحاول الوقوف على أَهمِّ العوامل التي أَدَّت إلى طول الجدال، وكثرة القيل والقال في مسألة الحداثة، وحالت دون الوصول إلى ما يرتجى من نتائج إيجابيَّة تُفَعِّل حياتنا علىٰ مختلف مستوايتها وتباينها، ومن قيادتها نحو الأَفضل. وقبل أَن نعرض لهذه العوامل لابدَّ من الإشارة إلى أَنَّها متشابكة متداخلة؛ يؤازر بعضها بعضاً، ويستمدُّ كلٌّ منها نسغه من غيره،

وعلى هذا الأساس نجدنا أَوَّلاً أَمام التَّخلُّف بمختلف مكَوِّناته ومركِّباته، ونجدنا ثانياً أَمام انقطاع الحوار والتَّمركُز حول الذَّات، أَمَّا العامل الثَّالث فهو فشل معظم المشاريع التَّحديثيَّة في تحقيق ما نادت به وتطلَّعت إليه.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنَّ أَظهر الأَسباب وأَقواها في عدم حسم مشكلة الحداثة هو التَّخلُّف الذي نتخبَّط به على رغم ادِّعاءاتنا بتجاوزه والانخراط في الحياة المعاصرة خطوةً بخطوة، وعلى رغم ما ننخدع به من أَوهام الإبداع والتَّعامل مع التِّقنيَّات المتطورة والاطِّلاع على ثقافات الآخرين وحذو حذو المتقدِّمين علينا، ومواكبتهم في بدعهم وصرعاتهم واختراعاتهم.

إنَّنا متخلِّفون على كلِّ الصُّعد والمستويات: سياسيَّاً واقتصاديَّاً واجتماعيَّاً وثقافيَّاً وحضاريَّاً وعلميَّاً ... هذه حقيقةٌ يجب أَن نقرَّ بها ونقف عندها بجرأةٍ دون حياء أَو تردُّد أَو خوف، ومن ظنَّ أَنَّ التَّقدُّم أَو الخلاص من التَّخلُّف والجهل متجسِّدٌ في ركوب آخر طرز الفاره من السَّيارات، واقتناء أَحدث أَنواع التِّلفزيونات والفيديوهات، واستيراد اللحوم المذبوحة على الطَّريقة الإسلاميَّة والخبز السِّياحي، ومحاكاة أَو تقليد آخر صرعات وتقليعات العالم المتقدِّم في الأَزياء والميول والأَهواء ..... **من ظنَّ أَنَّ هذا هو التَّقدُّم فقد خاب ظنُّه وبطل اعتقاده.**

إنَّ فوضى التَّخلُّف تقود أَشرعة مراكبنا كلِّها، ففي حين أَنَّ بعض الاتجاهات الإبداعيَّة كالرَّمزيَّة والتَّجريديَّة والسِّرياليَّة والتَّكعيبيَّة وغيرها قد أَولدتها تجارب شعبٍ ما ومشكلاته وخصوصيَّاته وظروفه الحضاريَّة فقد لهثنا وراء تقليد هذه الاتجاهات واقتفاء آثارها خطوة بخطوة دون أَن نمرَّ بالظُّروف والشُّروط والمعطيات التي أَدَّت إلى ولادتها. إنَّها ـ بغضِّ النَّظر عن الانتقادات الموجهة إليها ـ ثمار تجارب محدَّدة؛ نتائج لزمت عن مقدِّمات معيَّنة، وآفتنا أَنَّنا أَردنا أَن نتجاوز المنطق ونثب فوق جدران التَّاريخ؛ لقد أَردنا الوصول إلى النَّتائج دون المرور بالمقدِّمات، كمن أَراد أَن يتعلَّم السِّباحة فوق رمال الصَّحراء، وهذه إحدى مفارقات الحداثيين المضحكة. أَمَّا جامعاتنا ومخابرنا العلميَّة فقد ابتليت بإحدى آفتين، أَو بكلتيهما معاً؛ فهي إمَّا أَنَّها تُقاد وتُوجَّه من أَساتذةٍ أَجانب مصلحتهم أَلا نعرف مصلحتنا، وإن عرفنا مستوى خبراتهم لم نعرف كيف يتعاملون مع الأَجهزة ولا كيف يتحكَّمون بها. وإمَّا أَن تُقاد من أَساتذةٍ محلِّيين (أُمِّيِّين) جهلة، أَو بعيدين عن الحسِّ بالمسؤوليَّة وعن الحرص الحقيقي على المصلحة العامَّة، لاهثين وراء المصالح الشَّخصيَّة، وباسم الحداثة والمعاصرة وابتداع منظوماتٍ قيميَّةٍ جديدةٍ تواكب روح الحضارة والتَّقدُّم أَضاعوا العلم وأَفسدوا الطَّلبة. ولا نريد الحديث في الممارسات السِّياسيَّة اللاديمقراطيَّة بل اللاسياسيَّة واللاإنسانيَّة، ولا في التَّخلخل الاجتماعي ولا التَّرهُّل الاقتصادي ولا التَّقهقر الحضاري ... وكلُّها أُمور تحمل في طيَّاتها

بذور التَّناقض والكبت والضَّغينة وعُقد النَّقص وكلَّ ما يجعل حسم أَيَّ مسألةٍ خلافيَّةٍ ـ مهما كانت بسيطة ـ أَمراً بعيد المنال.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنَّ فريق المثقَّفين والمتنوِّرين وسط هذا الرُّكام من التَّخلُّف يقفون موقف المتصدِّع المليء بالشُّروخ؛ فبعضٌ يريد التَّخلُّص من هذا الواقع الفاجعيِّ الأَليم مهما كان الثَّمن فيجد الحلَّ في الانسلاخ عن الذَّات والاندماج في الآخر أَو التَّمثُّل به. وسواء كان هذا الآخر هو السَّلف أَم الأَجنبي فإنَّ الهوة ستزداد اتساعاً بين هؤلاء المثقَّفين والحلِّ الحقيقي؛ ففي كليهما هروب من الواقع وتنصُّلٌ من تحمُّل المسؤوليَّة في حمل أَعباء النُّهوض من ربقة الجهل والتَّخلُّف، وتعميق لشقَّة الخلاف بين التَّأصيل والتَّحديث، وهذا مما يسهم إلى حدٍّ جدِّ بعيد في إطالة الجدل حول ـ لا في ـ مشكلتنا المطروحة، ويهدر الطَّاقات والإمكانات والمواهب على مناقشات وطروحات تضرُّ أَكثر مما تنفع، وتبعدنا عن الحلِّ أَكثر مما تقرِّبنا منه.

والمشكلة التي يتخبَّط فيها فريق الاعتدال أَنَّه يقف بين نارين: نار الضَّياع ونار الجمود؛ إنَّه يريد الحداثة ويتهيَّب منها، ويتمسَّك بما صلح من التُّراث ولكنَّه يخشى التَّقوقع والتَّحجُّر، فكيف كان ذلك ولماذا؟

الحقُّ أَنَّ واقع التَّخلُّف الذي نعيشه، مرتبطاً بسياسات التَّجهيل والتَّعمية العقائديَّة (الأَيديولوجيا) بفرض الحلول الجاهزة النَّاجزة، سواء كانت بأُسلوبٍ سافرٍ أَم بطريقةٍ مؤدَّبة، وتوشيحها بلبوس المصالح العليا

للأُمَّة، قد زرع اليأس والإحباط في النُّفوس، وجعل العامَّة والخاصَّة تشعر بأَنْ لا أَمل يرتجى في تجاوز هذه الوضعيات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة المتجسِّدة على أَرض الواقع؛ سيَّان كانت المحاولة بالانكباب على الحداثة أَم بالانغلاق على التُّراث؛ فالأَول يقودنا إلى هاوية الضَّياع والاندثار والثَّاني يسلب منا مفاتيح الانعتاق والانطلاق، ذلك أَنَّه بفضل التَّوجيهات المسبقة الصُّنع سيعني التَّمسك بالتُّراث، بالضَّرورة اللازمة، الإئتزار بروح المحافظة، محافظة الخنوع والخضوع، والتَّمسُّك بالزَّائف والشَّكلي من هذا التُّراث. حيث، وبقدرة قادر، ستنقلب المثل والقيم الأَخلاقيَّة كالصَّبر والزُّهد والتَّسامح والقناعة والرِّضا والشُّكر من مضامين إنسانيَّة نبيلة إلى مضامين اجتماعيَّة واقتصاديَّة، ولتتحوَّل بالتَّالي الأَدوار الوظيفيَّة لهذه القيم والمثل من تفعيل التّآزر والتَّعاضد والتَّعاون والمثابرة ... إلى تكريس آليات الانغلاق والتَّقوقع والتَّحجُّر والجمود، وتجذير الذِّلة والانصياع والخضوع، وتعميق روح التَّبعيَّة والولاء الأَعمى والاقتصار على قول: سمعنا وأَطعنا.

وتتجلَّى الخطورة هنا أَكثر ما تتجلَّى في توظيف أَرباب الفكر والقلم للقيام بهذه التَّعديلات واستنباط معالمها وأَبعادها من التُّراث، والكشف عمَّا في هذا التُّراث مما يؤيِّد السُّلطة ويمجدها ويعظِّمها ويقدِّسها، ويبرر خلودها وسهوها وشرودها، ويسوِّغ قيامها وقعودها. وهذا ما عبَّر عنه الدُّكتور **حسن حنفي** بقوله: «كان الضُّباط الأَحرار بلا

مفكِّرين أَحرار ثمَّ صاروا ضد المفكِّرين الأَحرار من الجيل السَّابق ومن هذا الجيل حتَّى اختفى المفكِّرون الأَحرار من جيلنا وأَصبحنا كلَّنا موظَّفين لدى الثَّورة، نقف خلفها بدل أَن نكون في مقدمتها، مبرِّرين لقراراتها بدل أَن نكون ناقدين لها».

أَمَّا التَّخوف من الحداثة والتَّحديث في ظلِّ التَّخلف، وإن لم ينبع من المقارنة بين الماضي والحاضر بصورةٍ مباشرةٍ، فإنَّ المقارنة تتيح لنا فهم المشكلة على نحوٍ أَوضح.

عندما كانت الحضارة العربيَّة آخذةً في النَّماء والازدهار نهلت من معين الثقافات والحضارات الأُخرى: اليونانيَّة والهنديَّة والفارسيَّة ... فاستحدثت أَشياء كثيرة، وأَدخل المفكِّرون مفاهيم ومصطلحات ومفردات أَجنبيَّة كثيرة، من مختلف اللغات، إلى اللغة العربيَّة، ولم نسمع أَو نقرأ عن صراعٍ بين القديم وذلك والجديد، اللهمَّ إلاَّ في إطار الشِّعر على نحوٍ خاص؛ لقد استخدم النَّاس والمفكِّرون المفردات الجديدة وتعاملوا مع المعطيات المحدثة دون حيرةٍ أَو خوفٍ أَو تردُّد أَو جدال. أَمَّا الآن فكثيرون أُلئك الذين تنتابهم الدَّهشة، وتقشعرُّ أَبدانهم، وتعتورهم الرِّعدة والرَّجفة عندما يسمعون كلمةً أَجنبيَّةً في سياقٍ عربيٍّ، أَو يرون زيَّاً محض غربيٍّ على جسدٍ شرقيٍّ/عربيٍّ، فيتأَفَّفون ويحوقلون ويبدون التَّذمُّر وربَّما الغضب إن لم يكن هناك ما يمنعه، فلماذا كلُّ ذلك؟

إنَّ الأَمر في حقيقته مرتبطٌ بالبنيتين النَّفسيَّتين: الفرديَّة والجمعيَّة، اللتين تُفرزهما البنى السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والدِّينيَّة والحضاريَّة والعلميَّة المتخلِّفة. وأَكثر ما تتسم به هاتان البنيتان النَّفسيَّتان وتتميَّزان به هو الشُّعور بالضَّياع والشَّتات الذِّهني وما ينشعبان إليه من منعكسات نفسيَّة لا إراديَّة كالخوف والحيرة والتَّردُّد، وعقد النَّقص والكبت والتَّقصير، ولهذه العوامل؛ مجتمعةً ومتفرِّقةً، نقف أَمام الجديد والغريب والمحدث وقفة رفضٍ وتمرُّدٍ؛ إنَّنا نظنُّ أَنَّ استخدام المصطلحات والمفاهيم الأَجنبيَّة كما هي ـ دون تعريب ـ في لغتنا، سيلتهمها ويقضي عليها، أَو ـ على الأَقلّ ـ ينتقص من قيمتها وقدرها وقدرتها.

لقد فاتنا أَنَّ الحضارات يرفدُ بعضها بعضاً، وكل حضارةٍ تكمِّل سابقاتها، ونسينا فخرنا بأَنَّ حضارتنا قد أَمدَّت الأُمم الأُخرى ولغاتها بكثير من المفردات والمصطلحات والعادات والأَخلاق والعلوم، وتجاهلنا أَنَّ الأُمَّة الأَكثر تحضُّراً وتقدُّماً هي التي تؤثِّر في الأُمم الأُخرى على جميع الصُّعد، ليس لأَنَّها تريد أَن تؤثِّر فيها ـ دون إنكار وجود هذه الإرادة ـ بل لأَنَّ الأُمم المتخلِّفة والضَّعيفة تكون، على رغم إرادتها، منجرفة في سيل الأَقوياء، منطبعة على الذَّيليَّة واللهاث وراء الأَقوى، بدوافع لا شعوريَّة مرتبطة بآليَّةٍ نفسيَّة معيَّنة هي آليَّة التَّقليد أَو المحاكاة التي خصَّها **ابن خلدون** بفصلٍ في مقدمته عنونه بـ: «**إنَّ المغلوبَ مولعٌ أَبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيِّه ونحلته وسائر أَحواله وعوائده**».

وبهذا المعنى فإنَّنا، شئنا أَم أَبينا، مضطرَّون إلى اقتفاء خطى المتقدِّمين علينا أَنَّى وكيفما توجَّهت ركائبهم، حتَّى ولو دخلوا وجار كلبٍ لدخلناه، وهذا ما يبدو لنا جليَّاً في المسالك الأَخلاقيَّة والاجتماعيَّة .... لدى الخاصَّة والعامَّة من مختلف الطَّبقات الاجتماعيَّة، ولا سيَّما المنتبجة نفوسهم، أَمَّا المثقَّفون الذين لا يعرفون من أَين تؤكل الكتف، بل ولعلَّهم لا يعرفون أَين الكتف، فإنَّهم يقومون ولا يقعدون، يخصفون الأَرض بنعالهم، ويتحرَّقون أَلماً من مظاهر هذا الغزو الثَّقافي والأخلاقي والعلمي الإعلامي ...

لأَنَّنا نعدُّ هذا التَّواصل الحضاري غزواً؛ مخطَّطاً أَو غير مخطَّط، لم نستطع حسم مسألة أَو معضلة الحداثة التي تشكِّل جوهر هذا التَّواصل. ولا أُريد أَن أَتهم الذين يعدُّون التَّأَثُّر بالآخرين غزواً ثقافياً مختلف الأَوجه والجوانب بالجهل أَو التَّجاهل أَو القصور فهم محقُّون إلى حدٍّ كبير في ذلك، ولكنَّهم لم يقرأوا المشكلة في إطار خصوصيَّتها التَّاريخيَّة، وإنَّما أَودَّ أَن أُشير إلى أَنَّ الاختلاف ليس في التَّسمية فلا فرق في أَن يكون هذا التَّأثُّر أَو التَّأثير غزواً أَو هجوماً أَو صراعاً أَو تواصلاً أَو غير ذلك، لأَنَّ هذا التَّواصل الحضاري شبه ضرورةٍ منطقيَّة؛ إنَّنا ملزمون بالتَّأثُّر رغم أُنوفنا، فإن لم يخطِّط المتقدِّمون علينا لغزونا بهذه المسائل لاندفعنا بأَنفسنا إلى الانجراف في تيَّاراتهم من غيرما تخطيط ولا هدى، بمعنى

أَنَّهم لو لم يقوموا بغزونا لغزونا أَنفسنا بأَسلحتهم. فلماذا الجدال وكثرة القيل والقال؟! إنَّه الخوف والحيرة والضَّياع .... إنَّه التَّخلُّف، التَّخلُّف الذي يغلِّف الأَبصار والبصائر، ويستنبت في مستنقع القلق المصائر.

لماذا طال الجدال في الحداثة؟(*)

الذَّات المغلقة

(*) . نشر هذا الفصل في جريدة الثَّقافة الأُسبوعيَّة . العدد ٣٦ . السَّبت ٦ جمادى الأُولى ١٤١٥ هـ الموافق لـ ٣٠ أيلول ١٩٩٥م.

يعتقد الواحد منَّا أَنَّه منبع الحقِّ والحقيقة، ومصدر الصِّدق، وموئل الإخلاص. ويدَّعي أَنَّه وحده الحريص على المصلحة العامَّة، مصلحة المجتمع والأُمَّة. ويزعم أَنَّه الأَصدق، ويؤكِّد أَنَّ أَيَّ واحدٍ سواه دجَّالٌ، منافقٌ، نفعيٌّ يقدِّم مصلحته على كلِّ شيء، وربَّما يقدِّم الوثائق على خيانته وعمالته. ولذلك . حرصاً منَّا على ذاتنا وعلى إخلاصنا لأُمَّتنا . يجب أَن نفهمه كما هو، ونقبل أَفكاره كما هي، لأَنَّه هو هو، وكلُّ من عداه هوى.

إنَّ إعطاء الحقَّ لغير صاحبه أَبرز أَسباب الانغلاق على الذَات لأَن الذي يملك ما ليس يحقُّ له امتلاكه وليس أَهلاً لامتلاكه يشعر بالخوف ا لدَّائم من أَن يسلب هذا الشيء منه، ولذلك فإنَّه . وهو يتمسَّك بهذا الشيء بأسنانه . يتشرنق حول نفسه، ويلفُّ بالغموض كلامه، ويتهرَّب من أَيَّة مواجهةٍ مباشرة أَو حقيقيَّة، وفي الوقت ذاته يخلق العقبات والعراقيل أَمام الآخرين.

صحيحٌ أَنَّ التَّخلُّف أَحد أَهمِّ العوامل الحاسمة التي أَدَّت إلى طول الجدال في الحداثة إلى أَنَّ ثمَّة عاملاً آخر، لعلَّه الأَشدُّ تأثيراً، هو الانغلاقيَّة والتَّقوقع حول الذَّات، ولكن لأَنَّه من النَّتائج السَّلبيَّة المباشرة للتَّخلُّف آثرنا أَن نورده ثانياً.

يقول **طاغور** فيلسوف الهند العظيم: «سأفتح نوافذ بيتي الأَربع لتدخله الرِّيح من كلِّ الجهات، ولكنِّي أَتحدَّى أَن تستطيع واحدةٌ منها اقتلاعي من جذوري». والمشكلة التي تعاني منها مجتمعاتنا العربيَّة على العموم، ولا سيَّما مفكِّرينا، في المرحلة المعاصرة، أَنَّهم لا يفتحون نوافذهم ولا يريدون أَن يفتحوها ولا يتقبَّلون أَبداً أَن تتزعزع قناعاتهم، ولا فرق في هذه القناعات إن كانت صحيحة أَم خاطئة.

وفي حين يدعو **كارل يسبرز** إلى مباشرة الخصم بالحوار، واحترام رأيه عند الفشل في إقناعه، والاعتراف بأحقِّيَّته بالتَّمسك برأيه، يتجه جلُّ

مفكرينا، على اختلاف انتماءاتهم، إلى مزيدٍ من التَّعصُّب والانغلاق، وقذف الآخرين بالمق والجهالة وقصور النَّظر وما جرى في مجرى هذه النَّقائص، دون فتح أَيِّ بابٍ للحوار والمناظرة.

ولعلَّ كثيرين الآن سيصبُّون علينا جام غضبهم ولومهم وعتبهم لأَنَّنا ابتدرنا بالاستشهاد بفلاسفةٍ غير عرب مع غنى تراثنا وتاريخنا وثرائهما بمثل هذه الشَّواهد، والحقُّ أَنَّنا لم ننس ذلك، ولعلَّ أَول ما يطالعنا في هذا المجال قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «اطلبوا العلم ولو في الصِّين» هذا الأَمر الذي يوجب على المسلم أَن يبحث عن الحقِّ والحقيقة في أَيِّ مكانٍ حتَّى ولو لم يكن في هذا المكان مسلمٌ واحد. ويتمُّ معنى هذا الحديث بحديث آخر: «الحكمة ضالَّة المؤمن أَنَّى وجدها فليأخذها، أَو أَخذها». فلماذا يتَّجه المتعصبون للتراث إلى التَّشرنق به وقد عرفوا هذين الحديثين؟!

من خلال ذلك نجد أَنَّ التَّقوقع والانغلاق على الذَّات مرفوض ... مرفوضٌ بكلِّ الحالات، سيَّان كنَّا تحت لواء الدِّين أَم نسير في تيارات الغربيين، فلا يجوز لنا أَن نقطع الحوار والنِّقاش مع الآخرين متذرِّعين بالحرص على الدِّين أَو التُّراث، لأَنَّ الدِّين يأمرنا بالاتصال والحوار والنِّقاش والصول إلى الحكمة والحقيقة أَينما كانتا. كما لا يجوز أَن نتعصَّب وننغلق على أَنفسنا باسم المعاصرة، معاصرة الغرب ومضارعته، لأَنَّ الفكر العالمي يرفض الانعزاليَّة والتَّشرنق. وبالتَّالي **فإنَّ المصرَّ على**

التَّمسُّك بما يعتقده من آراء وأَفكار دون فتح باب الحوار مع الآخرين سيجد نفسه ملفوظاً إلى الخارج؛ خارج المجتمع والحضارة والتَّاريخ، تماماً كما لفظ هو المجتمع والحضارة والتَّاريخ وأَراد أَن يعيش فوق الزَّمان والمكان وكأَنَّه المطلق المتعالي الذي يفعل ولا ينفعل، يؤثِّر ولا يتأثَّر، يقنع ولا يُقْنَع.

تتجلَّى هذه الانعزاليَّة أَو التَّقوقع أَو قطع الحوار مع **الآخر في أَشكال متعدِّدة** ومظاهر مختلفة، وعلى الرُّغم مما بين هذه الأَشكال من تباعد وتباين فإنَّها تؤدِّي الغرض ذاته، و**تقود إلى** نتيجة واحدة هي **المزيد من الشُّروخ والتَّصدُّعات** في البنيتين الفكِّريَّتين: الفرديَّة والجمعيَّة، والمزيد من التَّخبُّط في الأَخطاء والعثرات التي تصل بذلك إلى توليد توليد ذاتها بذاتها. ولعلَّ أَبرز هذه الأَشكال:

أَولاً: الجهل والتَّجهيل

إنَّ الطَّامَّة الكبرى التي نعاني منها هي **تربُّع ثلَّةٍ من الجهلة الذين لا يميِّزون بين الخمسة والطَّمسة على عروش كثيرٍ من مؤسَّساتنا الثَّقافيَّة والفكِّريَّة؛** فكم من تاجر أَقمشة أَو صاحب مصنع أَحذية أَو متعهِّد بناء راق له أَن يصير مشرفاً على الكتُّاب والمفكِّرين فأَصبح ـ إلى جانب صنعته، صاحب دار نشر تسهم في رفد الحركة الثَّقافيَّة بما طاب لهذا النَّاشر أَو سرَّ قلبه ونال رضاه من تشدُّقات أَو ترَّهات .... وكم من مشرفٍ على صفحة االشِّعر أَو القصَّة أَو الثَّقافة في المجلات والصُّحف

العربيَّة، إن حمل الشَّهادة الابتدائيَّة وأَتقن قواعد الإملاء افتقر إلى قواعد النَّحو والصَّرف وفقه اللغة.

قد نكون مبالغين إذا قلنا إنَّ هؤلاء لا يحملون إلا الشَّهادة الابتدائيَّة، ولكنَّنا نظلم حملة الشَّهادة الثَّانويَّة أَو الجامعيَّة من هؤلاء إن نحن صنَّفناهم ضمن المتعلمين، بل نظلم العلم بهم لأَنَّهم ليسوا بأحس حالاً ممن وصفناهم، فماذا يعني أَن يحمل أَحدهم أَعلى الشَّهادات وهو غير قادرٍ على فكِّ حروف كلمةٍ تتجاوز الخمسة أَحرف، وعاجزٌ عن تركيب جملةٍ أَو شبه جملةٍ خاليةٍ من الأَخطاء. والأَمثلة حقَّاً يضيق المجال عن سردها، ولكن أَذكر هنا ـ من باب النَّقيض ـ أَن إحدى الشَّاعرات ذائعات الصِّيت والذِّكر دفعت إلى مجلَّةٍ بعددٍ من قصائدها، لا قصيدة، للنَّشر، ويبدو أَنَّ أَمين التَّحرير يلتقيها لأَول مرَّة، لأَنَّه ما كاد ينتهي من قراءة أَول قصيدة حتَّى انتفض كالملسوع وقال ـ كمن جاء بالذِّئب من ذيله ـ: إنَّها كثيرة الأَخطاء. فقالت الشَّاعرة ببرود غير المكترث: وماذا في ذلك؟ عليكم أَن تنقِّحوا وتصحِّحوا هذه الأَخطاء؛ أَنا مهمَّتي أَن أُقدِّم لكم الأَفكار والباقي عليكم(*) ... ولم أَتمالك نفسي من الضَّحك، بل

(*) ـ يخطئ من يعتقد أَنَّ الفنَّ مجرَّد أَفكار فليس ثمَّة رأْسٌ بشريٌّ سليمٌ لا تدور فيه مئات الأَفكار والخواطر التي تصنع عشرات اللوحات والقصص والقصائد والروايات ... وإنَّما الفن هو الصَّنعة التي تحيل تلك الأَفكار والخواطر إلى آيات جماليَّة، وفي مثل هذا قصَّة طريفة ذكرها بول فاليري قال: قال المصور الكبير ديجا للشاعر المعروف مالارميه: مأْشقَّ وأَصعب مهمَّتك، إنني لا أَستطيع أَن أُعبِّر عمَّا أُريد التَّعبير عنه، مع أَنَّ عقلي يضطرب بالأَفكار. فأَجابه مالارميه: إنَّ الشعر يا عزيزي لا يصنع من الأَفكار وإنَّما يصنع من الأَلفاظ.

القهقهة، على الرُّغم من أَنَّ ما كان إنَّما هو لطمةٌ مؤلمةٌ لا نكتة، **ولكنَّ شرَّ البليَّة ما يضحك.**

إنَّ وضع هؤلاء النَّاس في غير مواضعهم دفهم إلى التَّمادي في تشويه الحقائق وتجاوز الحدود؛ أرادوا أَن يكونوا شعراء وروائيِّين وباحثين ... فخرجوا علينا باسم الحداثة والمعاصرة بأشكال وأَلوانٍ لا يحملها ميزان ولا قبَّان، ولأَنَّ اللغة الفصيحة المقوننة تقف عائقاً أَمام جهالتهم وكسلهم عن تعلُّمها أَرادوا تحطيم اللغة وكسر القواعد وتجاوز المبادئ والأُصول، وعلى الرُّغم نجد من يجاهد لإقامة التَّماثيل والنُّصب التِّذكاريَّة لأَمثال هؤلاء الذين اشتهر بعضهم وظلَّ بعضهم الآخر مغموراً.

ثانياً: التَّمركز حول الذَّات

لا نعني بالتَّمركز حول الذَّات التَّمسُّكَ بالآراء والمعتقدات وإنَّما التَّعصب لها تعصباً أَعمى، ومحاولة فرضها على الطَّرف الآخر كما هي، وفي الأَغلب الأَعمِّ بصورة إكراهيَّة، بعيدةٍ كلَّ البعد عن الدِّيمقراطيَّة والموضوعيَّة.

يعتقد الواحد من هؤلاء أَنَّه منبع الحقِّ والحقيقة، ومصدر الصِّدق، وموئل الإخلاص. ويدَّعي أَنَّه وحده الحريص على المصلحة العامَّة، مصلحة المجتمع والأُمَّة. ويزعم أَنَّه الأَصدق، ويؤكِّد أَنَّ أَيَّ واحدٍ سواه دجَّالٌ، منافقٌ، نفعيٌّ يقدِّم مصلحته على كلِّ شيء، وربَّما يقدِّم الوثائق

على خيانته وعمالته. ولذلك ـ حرصاً منَّا على ذاتنا وعلى إخلاصنا لأُمَّتنا ـ يجب أَن نفهمه كما هو، ونقبل أَفكاره كما هي، لأَنَّه هو هو، وكلُّ من عداه هوى.

لقد باتت كلُّ وسائط الحوار ووسائل الاتصال مع الآخر مقطوعة أَو ملغَّمة، بل غير موجودة أَصلاً، بسبب التَّمركز حول الذَّات، هذه النَّزعة الآفة التي أَكلت قلوب كثيرٍ من مفكِّرينا وباحثينا، وإن كان مثل هؤلاء في اعتقادنا لا يستحقُّون أَن يوسموا بالباحثين أَو المفكِّرين لأَنَّهم يفتقرون إلى أُولى خصائص البحث العلمي وهي التَّواضع، ولو أَنَّهم كانوا على قدر كافٍ من العلم لكانوا متواضعين لأَنَّه كلَّما ازداد المرء علماً ازداد تواضعاً. إنَّ هذا الغرور والتَّعالي نتيجةٌ منطقيَّةٌ للخواء الفكري وعقد النَّقص التي يعيشها هؤلاء، إذ الأَكيد أَنَّ عقد النَّقص تقف عاملاً حاسماً وراء دفع المرء إلى الاعتداد الكاذب بالذَّات وإيهام الآخرين بالامتلاء، وكلَّما ضحلت ثقافة المرء عَظُمت في نظره لأَنَّه كلَّما ازداد معرفةً أَيقن أَنَّ ما يجهله أَكثر بكثير مما يعرفه.

ولذلك ظلَّ أَنصار الحداثة في واد وخصومها في وادٍ آخر، وكلٌّ يغنِّي **لليلاه**، أَو كما يقال في الشَّام: «الطَّبل في حرستا والزَّمر في حلبون».

ثالثاً: الفهم المقلوب

أَمَّا الشَّكل الثَّالث من أَشكال الانعزاليَّة وقطع الحوار مع الآخر الإصرار؛ الشُّعوري واللاشعوري، على فهم كل المعطيات انطلاقاً من

الأَفكار التي يحملها المرء؛ الباحث والمفكِّر والأَديب ... فلا يسمع أَو ينتبه إلا إلى ما يؤكِّد رؤياه، وإن سمع خلاف ذلك لا يفهمه إلا على أَنَّه انحراف وتشويه مقصود، وربَّما خيانة للوطن، وأَذكر هنا نموذجاً مضحكاً على هذا الصَّعيد، ففي عام ١٩٨٦م أَلقى الدُّكتور **حسن حنفي** محاضرة في جامعة دمشق عنوانها فيما أَذكر: (موقفنا الحضاري المعاصر) وخلاصة قوله: إنَّ النَّظريات الفكريَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة مرتبطةٌ بمنابعها، ولذلك فشلت كلُّ الأَفكار المستوردة لدى تطبيقها على واقعنا العربي، الذي لم يترك نظريَّةً إلا وجعل من ذاته حقل تجارب لها، كالشُّيوعيَّة والشُّيوعيَّة المعدَّلة والرَّأسماليَّة والوجوديَّة وأَضرابها، ولذلك علينا أَن نجعل نظريَّتنا تنبثق من واقعنا وتراثنا. وما كاد ينهي الأُستاذ **حنفي** كلامه حتَّى تنطَّع أَحد (المفكِّرين) ذائعي الصِّيت، الذي لا يكتب إلا ما يثير غليان الرَّأي العام ويقيمه ولا يقعده، وأَمسك (الميكرفون) بيدٍ ترتجف من شدَّة الغضب وقال بصوت متهدِّج، موحياً بأَنَّه يسخر من المحاضر:

. «أَتقصد من ذلك أَن نرمي كتب الطِّب المعاصر ونُدرِّس قانون **ابن سينا**، ونحرق كتب كلِّيَّة العلوم ونُدرِّس كتاب الحيوان **للجاحظ**، ونتجاهل كتب التَّاريخ ونُدرِّس تاريخ **الطَّبري**، ونقتصر هنا في الفلسفة على تدريس كتاب الشِّفاء ....؟!

الحقُّ أَنَّ الحاضرين . قبل المحاضر . قد صعقوا من هذا الاستنتاج الفظيع، الرَّهيب، المخيف، الذي كان بمثابة الضَّربة على الرَّأس، فأيُّ

منطقٍ يحكم عقله، وبأَيِّ طريقةٍ يفكِّر حتَّى وصل إلى هذه النَّتيجة التي يعسر على الطِّفل، إن غالط نفسه، أَن يصل إليها أَو يتقبَّلها؟!

وهكذا تسير عجلة أَزمة الحداثة عكس كلِّ العجلات، ولتستمرَّ االأَزمة بالتَّالي في التَّعاظم، خلاف كلِّ الأَزمات، ففي حين ـ كما قالوا ـ أَنَّ المصيبة تبدو أَول الأَمر عظيمةً ثمَّ تصغر شيئاً فشيئاً، فإنَّ مصيبتنا بدت صغيرة أَول الأَمر وبدأت بالتَّعاظم بوتائر متسارعة. ولو أَردنا معرفة الأَسباب التي أَدت إلى هذه النَّزعة الانعزاليَّة أَو التَّقوقعيَّة ... لوجدنا، إلى جانب الأَشكال ذاتها، أَنَّ إعطاء الحقِّ لغير صاحبه يقف في طلية هذه الأَسباب، ولأَنَّ الذي يملك ما ليس يحقُّ له أَن يملكه، وليس أَهلاً لامتلاكه، يشعر بالخوف الدَّائم من أَن يسلب هذا الشيء منه، أَو أَن يفتضح أَمر خوائه، فإنَّه ـ وهو يتمسَّك بهذا الشيء بأَسنانه ـ يتشرنق حول نفسه، ويلفُّ بالغموض كلامه، ويتهرَّب من أَيَّة مواجهةٍ مباشرة أَو حقيقيَّة، وفي الوقت ذاته يخلق العقبات والعراقيل أَمام الآخرين.

لماذا طال الجدال في الحداثة؟(*)

فشل المشاريع التَّحديثيَّة

(*) . نشر هذا الفصل في جريدة الثَّقافة الأُسبوعيَّة . العدد ٣٧ . السَّبت في ١٣ جمادى الأُولى ١٤١٥ هـ الموافق لـ ٧ تشرين الأَول ١٩٩٥م.

في حين يهيمن المتطفِّلون على منابر الإبداع يبحث المبدعون الحقيقيَّون عن المكان المناسب الذي يمارسون فيه نشاطهم الإبداعي فلا يجدونه، ولا يجدون بعد المرار والأَسى إلا الغربة ملاذاً، وتفريغ طاقاتهم الذِّهنيَّة والإبداعيَّة في منابر الغرب، الغرب الذي يدعونا أَربابه السِّلسلة المتاهة إلى أَن نتَّخذه قدوةً، ونحاكيه، ونقتفي آثاره خطوةً بخطوة، ثمَّ ... ثمَّ كلَّما سمعنا عن نابغٍ عبقريٍّ عربيٍّ في الغرب لطمنا الخدود وشددنا الشُّعور وقلنا: لقد قتلنا الغرب باستنزاف العقول العربيَّة المبدعة.

لم تنفق أُمَّةٌ في العصر الرَّاهن ما أَنفقه العرب على مشاريع التَّحديث والتَّنمية، ولكن في حين استطاعت بعض الشُّعوب أَن تنهض بوتائر متسارعة لتتصدَّر مكانةً مهمَّةً في العالم فقد ظلَّ العرب مسترخين في ذيل القطار، على الرُّغم من الامكانات الهائلة، والمبالغ المذهلة الطَّائلة التي أُنفقت لدفع قاطرتهم الاقتصاديَّة إلى الأَمام.

وإن كنَّا لا نريد أَن نناهض الحداثة فكذلك لا نريد أَن نسوِّغ فشل المشاريع التَّحديثيَّة ولا تبريرها، إنَّنا أَمام وقائع تفرض ذاتها علينا، شئنا أَم أَبينا. لقد فشلت الحداثة حتَّى الآن في أَن تثبت جدارتها في واقعنا العربي، ليس في الحقول الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وحسب، بل في ميداني الفكر والأَدب اللذين كانا أَشدَّ حماساً وتأجُّجا للانعتاق والتَّحرُّر والانطلاق. وهذا مما خلق حجَّةً قويَّة يستند إليها خصوم الحداثة في مواجهتها، وليطول، بالتَّالي، الجدل في الحداثة أَكثر، ولا سيَّما أَنَّ أَنصار الحداثة بمختلف فرقهم؛ الجادَّة والمتطفِّلة والانهزاميَّة ... مصرُّون على مواصلة المسير. فلماذا فشلت المشاريع التَّحديثيَّة في الوطن العربي؟؟

كما أَنَّ التَّنمية في طلِّ التَّبعيَّة تنميةٌ للتَّبعيَّة وتكريس لها. كما يقول أَرباب الاقتصاد. كذلك فإنَّ المشاريع التَّحديثيَّة، على تباين طبائعها وتعدُّد تصنيفاتها، عندما لا تتوفَّر لها الشُّروطُ والظُّروفُ المناسبةُ لا تعدو أَن تكون

محاولات عبثيَّةٍ مجهولة النَّتائج، محفوفة بالمخاطر، ولأَنَّ شروط التَّحديث غير متحقِّقةٍ في واقعنا العربي، بل ولأَنَّ الظُّروف السَّلبيَّة تقف أَمام الحداثة وجهاً لوجه، فقد فشلت حتَّى الآن معظم المشاريع التَّحديثيَّة إن لم تكن كلها، بل كثيرٌ منها قد انحرف عن المسار اللازم، أَو المخطَّط له، وغاص في مناحٍ غير مرجوَّةٍ ولا محمودة. ولو تتبعنا المشاريع التَّحديثيَّة العربيَّة ـ ما بين حكوميَّة وفرديَّة ـ لأَمكننا حصرها في المحاور الأَربعة التَّالية:

أَولاً: الصَّعيد الاقتصادي

لم تنفق أُمَّةٌ في العصر الرَّاهن ما أَنفقه العرب على مشاريع التَّحديث والتَّنمية الاقتصاديَّة، وفي حين استطاعت بعض الشُّعوب أَن تنهض بوتائر متسارعة، وخلال سنوات قليلة، لتتصدَّر مكانةً مهمَّةً وفعَّالةً في الحركة الاقتصاديَّة العالميَّة **فقد ظلَّ العرب** ـ فراداً وجماعةً ـ **مسترخين في ذيل قطار الاقتصاد العالمي، على الرُّغم من الامكانات الهائلة، والمبالغ المذهلة الطَّائلة التي أُنفقت لدفع قاطرتهم الاقتصاديَّة إلى الأَمام.**

لقد ظلَّت المديونيَّة تكبِّل معظم الدُّول العربيَّة، بل تزايدت بشكلٍ مخيفٍ في كثيرٍ منها. والمشاريع التي أُقيمت ـ إلى جانب عجزها عن المنافسة العالميَّة ـ كانت لرفد اقتصادات الدُّول الصِّناعيَّة بمقوِّمات البقاء والنَّجاح، ولتحملَ عنها أَعباء تأنف من حملها. صحيحٌ أَنَّنا ننتج كثيراً من الآلات والآليَّات والمعدَّات إلا أَنَّنا نفتقر إلى إمكان تحديثها وتطويرها، بل نعجز عن ذلك لأَنَّنا نصرُّ على

الاتكاليَّة ومعاقبة المخلصين والمبدعين، إنَّنا لا نريد إلا أَن نظلَّ على الهامش، ففي المشاريع الحكوميَّة تنتشر الفوضى والفساد والسَّرقات والرَّشاوى، وتفتقر إلى الرَّقابة والمحاسبة، فالرَّقابة العليا يُبطل مفعولها التَّستُّر والتَّضليل وغيرهما، ورقابة الضَّمير غائبة لسفر المراقب في إجازةٍ خارجيَّة . طبعاً ليس هذا الحكم عامَّاً إذ ثمَّة شواذ ـ أَمَّا الم شاريع الفرديَّة فتُهيمن عليها الأَنانيَّة الرَّخيصة وحبُّ الذَّات الواهم المغلوط، إنَّ أَصحاب رؤوس الأَموال لدينا عاجزون حتَّى الآن عن فهم مصالحهم الحقيقيَّة، هذه المصالح التي أَولدت القوميَّات الأَوربيَّة وتتجه إلى محاربتها الآن، إنَّهم يريدون الرِّبح السَّريع الوفير دون جهد.

ثانياً: الصَّعيد الاجتماعي

إنَّ فشل تحديث البنى النَّفسيَّة والاجتماعيَّة، من حيث العادات والتَّقاليد والأَعراف والأَخلاق وأَنماط السُّلوك، مرتبطٌ أَوثق الارتباط بالتَّخلُّف الذي نتخبَّط به، وقد سبق وبيَّنا أَنَّ تقليد أَو محاكاة المحكوم للحاكم، والضَّعيف للقوي، إنَّما هي آليَّةٌ نفسيَّةٌ لا شعوريَّة، تكاد تكون بحكم النَّتيجة اللازمة ضرورةٌ، وفي هذا وحده ما يكفي للكشف عن أَسباب فشل المشاريع التَّحديثيَّة للبنى النَّفسيَّة والاجتماعيَّة، هذه البنى التي تحمل أَشدَّ ما يكون من الحساسيَّة وردود الأَفعال المباشرة تجاه كلِّ جديدٍ يحاول أَن يفرض نفسه بصورةٍ فجَّةٍ ومباشرة، الأَمر الذي يحدث في الواقع تماماً، إذ إنَّ هذه التَّغيُّرات لا تأتي بشكلٍ تدرجيٍّ البتَّة، إنَّها على رغم ظهورها المباغت

الفجائي صرعاتٌ وتقليعاتٌ ينبو معظمها عن الذَّوق والمألوف والمعتاد، الأَمر الذي يضعها في صدر قائمة المستنكر المشجوب المرفوض، ويولِّد صراعاً قيميَّاً بين القديم والممحدث (الحديث)، القديم يريد أَن يثأر لذاته والحديث يريد أَن يتحدَّى ليثبت أَحقيَّته في الوجود.

قد يخالنا البعضُ باحثين عن مسوِّغات أَحقِّيَّة كلِّ محدثٍ بالوجود، ولذلك نعود إلى التَّأكيد من جديد أَنَّنا لا نتمنَّى بل نسعى أَن نكون موضوعيِّين، فالحقائق والوقائع ماثلةٌ أَمامنا، تفرض ذاتها علينا شئنا أَم أَبينا، ومهما أَغمضنا أَعيننا لن نلغي وجود الشَّمس السَّاطعة.

ثالثاً: الصَّعيد العلمي

أَمَّا فشل التَّحديث على الصَّعيد العلمي فهو متعدِّد الأَوجه والجوانب والأَسباب، فحتَّى الآن لم نستطع تحديث مؤسَّساتنا العلميَّة والتَّعليميَّة بما يتناسب مع روح العصر وثقافته، كما أَنَّنا نعاني من افتقارنا إلى المؤسَّسات البحثيَّة التي تليق بإمكاناتنا وطاقاتنا، بل بما يليق بشعبٍ يطلُّ على القرن الحادي والعشرين. **كما أَنَّنا مصابون بعمى الأَلوان لدى انتخابنا البعض لتصنيعهم علماء وباحثين، فنحارب أَصحاب المواهب والمبدعين ونضع العراقيل في سبلهم**، وننفق ملايين الدُّلارات على ثلَّةٍ من الفاشلين، أَو غير الأَكفياء على الأَقل، ليقضوا أَوطارهم من الشَّهوات واللذات، وليعودوا محمَّلين بحقائب الشَّهادات العلميَّة؛ أُستاذ، باحث، عالم، ضارب آلة كاتبة،

ضارب ودع، عازف على كلِّ أَوتار الفنون ... كلُّ ذلك، وسواه، بأُطروحةٍ قد لا يدري ماذا حوت، وقد لا يحسن ترجمتها!!!

إنَّها سلسلةٌ متكاملةٌ متداخلة، كلُّ حلقةٍ فيها تنبثق من سابقتها وتلفظ لاحقتها، حتَّى ترتبط الأَخيرة بالأُولى، وتتكرَّر العمليَّة الفاجعيَّة، وفي أَثناء ذلك يبحث المبدعون الحقيقيَّون عن المكان المناسب الذي يمارسون فيه نشاطهم الإبداعي فلا يجدونه، ولا يجدون بعد المرار والأَسى إلا الغربة ملاذاً، وتفريغ طاقاتهم الذِّهنيَّة والإبداعيَّة في مخابر الغرب، الغرب الذي يدعونا أَرباب تلك السِّلسلة المتاهة إلى أَن نتَّخذه قدوةً، ونحاكيه، ونقتفي آثاره خطوةً بخطوة، ثمَّ ... ثمَّ كلَّما سمعنا عن نابغٍ عبقريٍّ عربيٍّ في الغرب لطمنا الخدود وشددنا الشُّعور وقلنا: لقد قتلنا الغرب باستنزاف العقول العربيَّة المبدعة.

رابعاً: الصَّعيد الفكري والأَدبي

مئةُ عامٍ تزيد نيِّفاً قد مضت على بدء مشروع ترجمة الفكر العالمي المعاصر، هذا المشروع الذي توخَّى ربطنا بآخر تيَّارات الفكر والأَدب كيما نتمكَّن من مواكبتها والإسهام ـ من ثمَّ ـ في رفد الحضارة الإنسانيَّة بفكرنا وأَدبنا. والطَّريف في الأَمر أَنَّ هذه التَّرجمات ما زالت تسير على قدمٍ وساق؛ نلهث ونلهث، نترجم عشرات ومئات الكتب سنويَّاً، وعند تصفية الحسابات في الجرد السَّنوي نجدنا لم نترجم إلا النَّزر اليسير، فنزيد اللهاث، ولكن هيهات هيهات من اللحاق. ولذلك لا نجد مناصاً من التَّساؤل مع البعض: «**إن كنَّا قد تجاوزنا المئة عامٍ في التَّرجمة للاطِّلاع على الفكر**

العالمي المعاصر، ولم نترجم حتَّى الآن إلا أَقلَّ القليل، فمتى نبدأ بالمساهمة الفعليَّة في هذا الفكر المعاصر؟!».

الحقُّ أَنَّ ثمَّة إسهاماتٌ لا بأس في عددها، ولكنَّ البأس كلَّ البأس في موضوعاتها أَو كُتَّابها، فلقد دَأَبَ نفرٌ من المفكِّرين والأُدباء على انتقاء أَسوأ بِدَعِ وتقليعات الفكر والآداب الأَجنبيَّة وتبنيها قلباً وقالباً، ومحاولة التَّرويج لها في واقعنا العربي. وكرَّس فريقٌ آخر جهوده كلَّها لنقل بعض النَّظريَّات والتَّيارات الفكريَّة والأَدبيَّة الأَجنبيَّة على عواهنها ودون مراعاة خصوصيَّات نشأتها، وروَّجوا لتطبيقها بحرفيَّتها في الواقع العربي، فكانوا شبه آلات، بل ببغاوات يردِّدون ما يقرأونه بلا أَدنى تفكير. واطَّلعت فئةٌ على منجزات أُدباء الغرب ومفكِّريه وتبنَّت على غير فهمٍ نظريَّاتٍ معيَّنة فنقلتها مشوَّهةً مشوبةً محرَّفةً، وأَرفقوا هذه النَّقائص بتعصُّبهم الأَعمى لها. وظنَّت طائفةٌ ـ بحذقها ونباهتها ـ أَنَّ السَّرقة أَمر سهلٌ ويسير، وهيهات أَن تُكتشف هذه السَّرقات في خضمِّ هذا الكمِّ الهائل من الكتب الأَجنبيَّة، بلغاتها المتعدِّدة، ولكنَّنا ـ والله يشهد ـ دون قصد الإساءة أَو تتبُّع العورات، نكتشف ـ بالمصادفة غالباً ـ أَنَّ معظم كتب فلان وفلان، ممن قرأنا لهم بثقةٍ واعتزاز ـ منقولة أَو منقوشة أَو مسروقة حرفيَّاً أَو شبه حرفيٍّ عن كتب أَجنبيَّة (غالباً ما ترتبط بلغة البلد الذي درس فيه هذا الفلان)، وما أَكثر ما نشرت الصُّحف والمجلات عن أَمثال هؤلاء.

على أَنَّ ثمَّة مفكِّرين أَجلاَّء، ولهم إسهاماتهم الفكريَّة والأدبيَّة التي لها مكانتها، ولكنَّهم قلَّةٌ في خضمِّ موجٍ عاتٍ، والذي يزيد الطِّين بلَّةً أَنَّنا إذا

جمعنا نتاج هذه القلَّة القليلة إلى نتاجات الكثرة الكاسرة وقارناه بنتاجات الأُمم والشُّعوب الأُخرى لوجدنا ـ كما في آخر الإحصائيَّات ـ أَنَّ الوطن العربي برمَّته يقف في المرتبة الأَخيرة بين الأُمم ـ الدُّول ـ من حيث عدد المطبوعات السَّنويَّة.

٥

تميـــيع الـحـــداثة(*)

(*) . نشر هذا الفصل على أأربعة أقسام في جريدة الثَّقافة الأُسبوعيَّة في الأعداد ٣٤ حتى٣٧ عام ١٩٩٤م.

لنكن صريحين واضحين مع ذواتنا، وتعالوا نجرِّب ولو مرَّةً واحدةً أَن نكون صادقين مع أَنفسنا أَولاً ومع الآخرين ثانياً. هلموا نُجرِّب لعبة الصِّدق مع الذَّات ... إنَّها لعبةٌ مؤلمةٌ أَحياناً ولكنَّها ممتعة؛ أَليست المقدِّمات التي نبتدر أَحاديث المعادنة بها تمييعاً لمشكلة الحداثة، وتضليلاً نمارسه على أَنفسنا وعلى الآخرين الذين نريد أَن نصادر على آرائهم قبل أَن يقرأوا الموضوع؟؟!!!

إنَّ الحداثة . مدار الصِّراع . مسعًى بشريٌّ لقيادة دفَّة التَّغيُّر والتَّطوُّر في الطَّبيعة والفنون والآداب والأَخلاق ... على نحوٍ قسريٍّ باصطناع حقائق جديدة . وإن لم تكن حقائق . ووضعها في مقدِّمة النَّسق المراد تغييره، ثمَّ إكراه صور الجواهر الأَصليَّة على التَّكوُّن بما يتَّفق مع الحقائق المفترضة والتي هي . بالنِّسبة لهم . حقائق جاهزة ناجزة ثابتة.

إنَّ مشكلة الحداثة مشكلةٌ قديمةٌ جديدةٌ بآنٍ معاً، وهي معركةٌ وجدت مع الإنسان منذ مطالع وجوده، وما زالت قائمةً لأَنَّها معركةٌ بين القديم والجديد، فالجديد لا ينفكُّ عن التَّوالد كلَّ حين، ليغدو بعد فترةٍ ما، نسبيَّة، قديماً يصطدم مع الجديد الذي سيحلُّ مكانه، كما كان شأنه ساعة ولادته واصطدامه مع القديم حينها.

لنكن صريحين وواضحين مع ذواتنا، وتعالوا نجرِّب ولو مرَّةً واحدةً أَن نكون صادقين مع أَنفسنا أَوَّلاً ومع الآخرين ثانياً. هلمُّوا نجرِّب لعبة الصِّدق مع الذَّات ... إنَّها لعبةٌ مؤلمةٌ أَحياناً ولكنَّها ممتعة؛ أَليست المقدِّمة التي ابتدرنا بها تمييعاً للحداثة، وتضليلاً نمارسه على أَنفسنا وعلى الآخرين الذين نريد أَن نصادر على آرائهم قبل أَن يقرأوا الموضوع؟!

أَيُّ جاهلٍ أَو غير متعلِّمٍ ذاك الذي لا يعرف أَنَّ عجلة الحياة . بكلِّ معطياتها العلميَّة والفكريَّة والمعرفيَّة: العمليَّة والنَّظريَّة؛ الأَخلاقيَّة والاجتماعيَّة

والنَّفسيَّة ..... لا تنفكُّ عن الدَّوران مخلِّفةً وراءها الكثير الكثير مما يُحبُّ ولا يُحبُّ، يُشتهى ولا يُشتهى ... لتنتقل إلى معطياتٍ وظروفٍ وظواهر جديدة تتولَّد على رغم أُنوف كلِّ البشر؛ كلَّ يوم، بل كلَّ ساعةٍ شيءٌ جديد: اختراع، اكتشاف، مولود، نكتةٌ جديدة، سلوكٌ مبتدع، لحنٌ مبتكر، شعرٌ مصطنع، أُغنيةٌ مستحدثة، وجوه، أَشجار، ثمار، أَمراض، فنون، أَساليبٌ جديدةٌ غير معهودةٍ في كلِّ شيء ... أَيُّ جاهل ذلك الذي لايعرف هذه الحقيقة ولا يقرُّ بها، وأَيُّ مثقَّفٍ أَو عالمٍ هو الذي يستطيع أَن يجابهها، بل أَيُّ سلطةٍ هي التي تدَّعي أَنَّ في مُكنتها اتِّخاذ قرارٍ في هذا الشَّأن؛ سلباً كان أَم إيجاباً؟!!

وعلى الرُّغم من كلِّ ذلك فإنَّ أَوَّل ما يطلع علينا به خصوم الحداثة هو أَنَّها ضرورةٌ حتميَّةٌ، وهم ليسوا ضدَّها أَبداً لأَن الوقوف أَمامها هو وقوف أَما حركة التَّاريخ ... وفي الوقت ذاته يبغتنا أَنصار الحداثة بين الحين والحين بأَنَّهم يركبون التَّيَّار الذي لا يمكن مجابهته ولا محاربته؛ أَيستطيع أَحدٌ أَن يحارب منطق الطَّبيعة وسنَّة الحياة في التَّغيُّر والتَّجدُّد والحيويَّة؟ أَيُّ عاقلٍ أَو مجنون أَو جاهلٍ يمكنه أَن يُنكر أَنَّ الحديث مولودٌ على رغم أُنوف العالمين؟! وبالتَّالي فإنَّ التَّنكُّر للحداثة هو تنكُّرٌ لحركة التَّاريخ، وكفرانٌ بسنَّة الله في الأَرض.

وهنا نتساءل: إذا كان الأَمر على هذا النَّحو فلماذا استمرار الجدال وكثرة القيل والقال، ولِمَ الهذُّ والبذُّ والعيُّ، والاصطدام النِّقاشيُّ الحاد، وتبادل الاتهامات وربَّما الشَّتائم؟!

إنَّ المشكلة الحقيقيَّة هي في تهرُّب الفريقين من طرح المشكلة كما هي في جوهرها، وتمييعها بالتَّحليق حول حوافها وأَطرافها، وممارسة لعبة القهر والاستفزاز بآنٍ معاً؛ قهر القارئ بتضليله وخداعه، ودفعه بعيداً عن جوهر الصِّراع، وبالتَّالي تشريبه المقلب البارد، المتخم بالزَّناخة، بملعقته من حيث لا يدري. واستفزاز الآخر بطريقةٍ رخيصةٍ وخدعةٍ مكشوفةٍ بحيث يظنُّ كلُّ فريقٍ أَنَّه يضحك على الآخر ويموِّه عليه، وإنَّما هو في حقيقة الأَمر يضحك على ذاته لأَنَّه يخاف أَن يكشف حقيقة موقفه، وهنا يكمن جوهر المشكلة.

إنَّ الإسفار عن الوجه الحقيقي لصاحب الموقف؛ الرَّافض أَو الدَّاعم، يعني وقوع الطَّرفين بين المطرقة والسِّندان، فالرَّافضون سيتَّهمون بالانغلاق والتَّقوقع والرَّجعيَّة والقصور المعرفي، والأَنصار سيتَّهمون بالصَّرعة والتَّخريب والعبث وفقدان الموهبة وربَّما العمالة. فهل سنوجِّه أَصابع الاتهام إلى الفريقين على النَّحو الفج؟

قطعاً لا يمكننا ذلك ولا يقبل إن أَمكن، لأَنَّ أَمر الاتهام مرتهن بتوجُّه فريق واحد دون الآخر إلى الصَّراحة والوضوح، فلو كُشفت الأَقنعة ورُفعت السَّتائر التي يتخفَّى وراءها الفريقان بآنٍ معاً لغدا الأَمر سهلاً، يسير الحل، بسيط العلاج، ولكنَّ الإصرار على التَّقنُّع والتَّخفِّي واتِّهام الآخر بالزِّيف والقصور هو الذي عقَّد المشكلة وأَوقع الجميع في إرباكات لا مبرِّر لها أَصلاً إلا العناد والخوف من المواجهة.

قد يستنفر البعض من هذا الكلام أَو يشمئزَّ منه، ويقول في قرارة نفسه: جاء ليكحِّلها فأَعماها، صار له ساعةً يُرغي ويُزبد ولم نعرف ماذا يريد، فما هي هذه الحقيقة التي ما زال منذ ساعة يلفُّ ويدور حولها بالتَّلميح دون التَّصريح؟!

الحقيقة؟! الحقيقة أَنَّ الطَّبل في حرستا والزَّمر في حلبون كما يقول أَهل الشَّام، **لأَنَّ الحداثة المقصودة ليست هي الحداثة التي لاكتها المطابع ملايين بل مليارات المرَّات**، اللهمَّ إلا فيما ندر، فالثَّابت الأَكيد، الآن وفي أَيِّ عصرٍ مضى، أَنَّ الحياة لا تنفكُّ عن تقديم المحدث، الجديد، كلَّ ساعة وكلَّ لحظة، ولكنَّ خلافاً حول الحداثة وصراعاً على النَّحو الذي نشهده اليوم لم يوجد مثله في التَّاريخ قط، لأَنَّ الحداثة المقصودة بعينها الآن غير كلِّ الحداثات التي عرفها التَّاريخ، غير أَيِّ صراع بين قديمٍ وجديد على مدى ما عاشه البشر على سطح الأَرض.

إنَّ الحداثة مدار الصِّراع والنِّقاش والجدال الآن حداثةٌ نوعيَّةٌ جدُّ خاصَّةٍ لم تعرف البشريَّة مثلها البتَّة، إنَّها مسعًى بشريٌّ لقيادة دفَّة التَّغيُّر والتَّطوُّر في الطَّبيعة والفنون والآداب والأَخلاق والعادات والأَعراف والتَّقاليد ... على نحوٍ قسريٍّ باصطناع حقائق جديدة . وإن لم تكن حقائق . ووضعها في مقدِّمة النَّسق المراد تغييره، تبديله، تطويره، ثمَّ إكراه صور الجواهر الأَصليَّة على التَّكوُّن بما يتَّفق مع الحقائق المفترضة والتي هي . بالنِّسبة لهم . حقائق جاهزة ناجزة ثابتة، وهذا ما يتقاطب ويتعارض بشكلٍ

صارخٍ مع الحداثة بالمفهوم السَّابق، أَيِّ مع سنَّة التَّطور والتَّجدُّد في الحياة بمختلف معطياتها ومستوياتها.

والذي زاد الطِّين بِلَّةً أَنَّ تيَّاراتٍ عقائديَّةٍ (أَيديولوجيَّة) معيَّنةٍ تبنَّت هذا الاتِّجاه / المسعى، وقادت حملته التي لم تلقَ تقبُّلاً في أَيِّ مكان، سيَّان في الغرب والشَّرق والشَّمال والجنوب، وتجلَّى القسر في حملة الحداثة هذه بالهيمنة على وسائط الإعلام ومنابر الفكر الأُخرى، وإغلاق الأَبواب والمنافذ أَمام الأَصوات المعارضة بطريقةٍ مؤدَّبةٍ حيناً وغير مؤدَّبةٍ أَحياناً. وعوضاً عن أَن يسفروا عن أَغراضهم على حقيقتها شنَّوا حملتهم الحداثيَّة باسم التَّغيُّر والتَّطوُّر الذي لا يمكن مواجهته أَو مجابهته، الأَمر الذي أَثار الهلع والفزع في كثيرٍ من النُّفوس، فبفضل هذه الحملات أَصبح خصوم الحداثة رجعيين، منغلقين، متقوقعين، أَقفال ... وهنا بدأت اللعبة، لعبة التَّقنُّع والتَّخفِّي وراء ما لا يمكن ردُّه، وصار الفريقان يتحاربان، ظاهريَّاً، من أَجل إثبات الفكرة ذاتها، وعلى الرُّغم من أَنَّهما يريدان إثبات الفكرة ذاتها فإنَّ اللقاء مفقود، والاتِّصال غير موجود، والعِداء والتَّنافر في اتِّقادٍ جذوةٍ.

إنَّ أَخطر ما في هذا الموضوع هو التَّصدُّع الذي لا يُرأب، والشَّرخ العميق في البنى الفكِّريَّة كافَّة، المتولِّد عن حالة الصِّراع الناشزة هذه، التي نبتت في حقول أَلغام العقائديَّة (الأَيديولوجيا) وسحقت مشاعر الإنسان وعواطفه وأَخلاقه باسم الرُّقي بالإنسانيَّة، فانعدمت الحلول الوسطى، وتلاشت الآمال بالتَّوفيق أَو التَّوافق، **وصار على**

الإنسان إمَّا أَن يكون حداثيَّاً أَو أَن يكون سلفيَّاً، إمَّا أَن يكون تقدُّميَّاً أَو أَن يكون رجعيَّاً، ولا مجال للحوار، ولا إمكان للقاء. فلا توجد منطقةٌ وسطى ما بين الجنَّة والنَّار. والطَّامَّة الكبرى أَنَّنا لم نعد نعرف أَيُّهما الجنَّة وأَيُّهما النَّار، فكلٌّ منهما يدَّعي أَنَّه الجنَّة والنَّعيم، وما عداه العذاب والجحيم، **لم يعد يجرؤ المرء على رفض محدثٍ . على الرُّغم من عدم تقبُّله له . خشية أَن يتَّهم بالرَّجعيَّة والانغلاق والتَّحجُّر**، صار البعض يستحي من برِّ الوالدين وينفر من ذلك لأَنَّه مؤشِّرٌ على الانصياع والرُّضوخ والشَّخصيَّة الضَّعيفة والانهزاميَّة في المفهوم المعاصر، لقد ضاعت الحقيقة وانقلبت المفاهيم.

وعلى هذا النَّحو اضطر فريق الخصوم إلى التَّقهقر الظَّاهري والتَّمترس بالشِّباك التي يرميها الحداثيون ومحاولة ردِّ كيدهم على نحرهم من خلال هذه الشِّباك ذاتها على الرُّغم من أَنَّها لا تهشُّ ولا تنشُّ ولا تُقدِّم ولا تُؤخِّر، لأَنَّها ملقاةٌ في ميدان آخر بعيدٌ كلَّ البعد عن ميدان الصِّراع وجوهره. وغدت حملات الطَّرفين أَشبه ما يكون بالطَّلقات الخُلَّبيَّة المسدَّدة بعيداً عن الهدف.

لقد صار خصوم الحداثة، هذه، يخافون أَو يتحاشون القول إنَّنا نرفض حداثتكم هذه المُخرِّشة الآذان والأَذواق، المُخدِّشة الأَبصار والبصائر، لأَنَّهم سيقعون في مزالق مغالطة منطق التَّاريخ بسبب ما صارت توحي به مشكلة الحداثة، وصاروا يتهرَّبون من القول: إنَّنا نرفض تقليد

الغرب في صرعاته لأَنَّ ذلك يعدُّ ـ في عُرف الحداثة ـ تعصُّباً أَعمى وانغلاقاً وإنكاراً للوحدة الإنسانيَّة ... وصاروا يتحاشون استنكار الأَدب السَّخيف الفاضح، خادش الحياء، المليء بالعهر، المتخم بالدَّعارة، المفعم بالإثارة والإباحيَّة واختراق الأَخلاق، لأَنَّ هذا الاستنكار ـ في عُرف الحداثة ـ مؤشِّرٌ واضحٌ على معاداة الحريَّة والدِّيمقراطيَّة ومناهضة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وقمع المواهب الإبداعيَّة ... **لقد وصل الأَمر والحال بخصوم الحداثة إلى حدِّ طلب سلَّتهم بدون عنب، وفُخَّار يكسِّر بعضه كما يقال،** أَملاً بالنَّجاة بشرفهم وكرامتهم لأَنَّ لعبة الحداثيين حُبكت جيِّداً ـ إلى جانب ما توفَّر لها من عنصر الهيمنة الإعلاميَّة ـ فإمَّا أَن تكون حداثيَّاً تقبل بكلِّ شيء حتَّى ولو لم تعتقده أَو لم تقتنع به وإمَّا أَن ترفضها فَيُشَكُّ في عقلك وقدرتك التَّفكيريَّة.

أَعتقد أَنَّ الموقف قد بدأ ينجلي الآن ويتَّضح، فالحداثة المقصودة ليست هي الحركة التَّاريخيَّة التي تفرز دائماً معطيات جديدة، وإنَّما هي حركةٌ عقائديَّة (أَيديولوجيَّة) ذات مساعٍ محدَّدة في أُطرٍ محدَّدة، تتجلَّى، وبشكلٍ واضحٍ وصريحٍ، في الشِّعر والأَدب والفنون التَّشكيليَّة، لتنعكس بالتَّالي في السُّلوك الإنساني؛ الاجتماعي والأَخلاقي والجمالي والنَّفسي والرُّوحي.

والمشكلة هنا أَنَّ الحداثيين يتهرَّبون من الكشف عن أَقنعتهم والمباشرة بمرادهم، ويفضِّلون دائما الحديث في إطار العموميَّة والغموض والعبارات الطَّنَّانة على خوائها، لأَنَّهم، يقيناً، يعرفون عين ما يرمون إليه وما هم فيه،

والذي يبتغونه هذا منبوذٌ مرفوضٌ مستنكرٌ مستهجنٌ، وسأُبيِّن ذلك فيما يلي:

حقيقة مطلب الحداثيين

لن أَقول أَنا لست ضدَّ الحداثة، كما لن أَقول أَنا معها، لأَنَّه من غير المستحبِّ، بل من المستهجن المستقبح المعيب أَن ننه عن خُلقٍ ونأتي مثله، لقد قرَّرنا منذ البداية ضرورة عدم المواربة والمخاتلة، ولذلك سأَقول: **أَنا ضدَّ الحداثة، وأَرفضها بشدَّة، وأُدينها،** لأَنَّ الغرض المحور للحداثة هو التَّخريب لا البناء، الهدم لا الإعمار؛ **لقد قتلت الحداثة مكانة الشِّعر السَّامية العليَّة في نفوس النَّاس،** وأَفسدت الذَّائقة الشِّعريَّة، وأَلقت بجثَّة الشِّعر ـ بعدما أَوسعته طعناً وتشويهاً ـ على المزبلة، وفَرِحَ أَدعياء الشِّعر بالتَّربُّع على عرش القتيل. **لقد اغتالت الحداثة فنَّ التَّصوير** (الرَّسم) بمختلف ضروبه وحوَّلته من فنٍّ راقٍ إلى (خرابيش) وعبثٍ لا طائل له، فنزعت من قلوب المتلقِّين حبَّ الجمال وتذوُّقه. **لقد شوَّهت الحداثة فن النَّحت العظيم** السَّاحر وجعلته مرتعاً لعقد النَّقص والعاهات النَّفسيَّة، فصرنا نشاهد مسوخاً، بل يا ليتها مسوخ، إنَّها أَقلُّ من لهو الأَطفال وعبثهم، إنَّها كلُّ ما يخطر في البال من ترَّهات، ترَّهات تفتقر إلى أَيِّ شكلٍ ومضمون، دون أَن تحتاز على ذرَّةٍ أَو أَقلِّ من ذرَّةٍ من روح الفنِّ. **لقد سحقت الحداثة الأَخلاق** والعادات والأَعراف الجميلة النَّبيلة تحت أَقدامها الرَّجسة بدعوى الحريَّة والدِّيمقراطيَّة وبناء الشَّخصيَّة المستقلَّة. **لقد نزعت الحداثة من**

الأَدب نزاهته وبراءته وروعته وتساميه وروحه وغاياته النَّبيلة؛ التَّربويَّة والتَّوجيهيَّة والتَّرفيهيَّة والإمتاعيَّة، وحوَّلته إلى معارض إثارةٍ للغرائز وأَساليب المجون، فصرنا نقرأ قصصاً وروايات وخواطر لا تقلُّ كلُّ عبارةٍ منها عن الصَّفعة الدَّامية على صفحة الخد. **لقد أَساء أَنصار الحداثة إلى الحداثة ذاتها**، إلى سنَّة الكون في التَّطوُّر والتَّجدُّد والحيويَّة.

قد يتنطَّع متشدِّقٌ فيقول: يا أَخي ما لهذا الرَّجل يغدق بأَحكامه، ويبتُّ مسائله هكذا من غيرما حساب وكأَنَّه مصدر الحقُّ والحقيقة، غير آبهٍ بما قدَّمته الحداثة ولا معيراً أَصحابها اهتماماً، وكأَنَّهم نسياً منسيَّاً لاحول لهم ولا قوَّة، أَيعقل ذلك؟

طبعاً لكلِّ إنسانٍ الحقُّ في التَّشكيك في مقولات الآخر وادِّعاءاته، ولكن من المفروض عليه ومن صلب واجبه أَن يقطع الشَّك باليقين، ومن حقِّنا أَن ندافع عن مقولاتنا لطالما نؤمن بصحَّتها ونعتقد بها، كلُّ ذلك بالنَّزاهة، والموضوعيَّة، وبعيداً عن أَيِّ نظرةٍ تعصُّبيَّة، آخذين الواقع والمثال بعين الاعتبار. وإن لم نصل في المحصلة إلى حلٍّ فيجب أَن يحترم كلٌّ منَّا رأي الآخر، ونترك للأَجيال اللاحقة الحكم، فلا يصحَّ إلا الصَّحيح، ولا يبقى إلا الحقُّ والصَّواب، ولذلك اسمحوا لنا أَن نعرض دفاعنا عن أَحكامنا.

إنَّ حركة الحداثة وإن بدأت في الغرب مفرزاً تلقائيَّاً من مفرزات التَّقدُّم التِّقاني الهائل، المتسارع الوتائر، والتَّحوُّل من أَنماط العيش الحضاريَّة التَّقليديَّة إلى المجتمعات الصِّناعيَّة، وسيطرة الأَتمتة، الأَمر الذي ولَّد أَخلاقاً

جديدةً وقواعد سلوكيَّة جديدة وعلاقات جديدة، إلا أَنَّها اتَّخذت في الشَّرق؛ العربي خصوصاً وغير العربي عموماً، أُسلوباً مخطَّطاً له باعتبار، وتخبُّطاً باعتبار آخر؛ مخطَّط له من حيث التَّشجيع والدَّعم الغربيِّ الهائل له باعتباره يمثِّل نوعاً من أَنواع الغزو الثَّقافيِّ والسَّيطرة الفكريَّة، ومن حيث التَّآزر والتَّعاضد بين أَنصار هذه الحركة على نحوٍ غريبٍ طريفٍ تمثَّل بتطبيلهم وتزميرهم لبعضهم بعضاً، وخلع الأَلقاب، وإغداق التَّقريظات الطَّنَّانة البرَّاقة على كلِّ انحرافٍ يخدم توجُّهاتهم، وعلى كلِّ توجُّهٍ يلتقي معهم. أَمَّا التَّخبُّط فيمثل في أَنَّ هذه الحركات الحداثيَّة في مختلف المجالات قد انتهت واندثرت في الغرب كحركات . وإن ظلَّت أَذيالها وظلالها وأَفكارها وبقيت كتوجُّهات فرديَّة . وفي حين أَنَّها مُحاربةٌ هناك ومرفوضةٌ ومنبوذةٌ فإنَّنا نصرُّ على اللهاث وراءها، وعلى بعث الحياة فيها. وفي حين أَنَّ هذه الحركات التَّحديثيَّة الشَّاذة انبثقت من صلب روح حضارةٍ معيَّنةٍ؛ معبِّرةٍ عن تجربتها وخصوصيَّة فكرها وأَنماطها اللغويَّة والأَدبيَّة والحياتيَّة فإنَّ أَنصارها عندنا يلحُّون على تطبيقها على واقعنا تماماً كما هي في الأَصل . ولكن بنتاجٍ وأُسلوبٍ أَسوأ بكثيرٍ جدَّاً . على الرُّغم من الفوارق الشَّاسعة بين الحضارتين؛ الغربيَّة والشَّرقيَّة؛ اجتماعيَّاً وسياسيَّاً واقتصاديَّاً وأَخلاقيَّاً وعلميَّاً.

إنَّ مفتاح حلِّ لغز النَّزعة التَّخريبيَّة لدى الحداثيِّين يتجلَّى في نقطة الانطلاق. وقبل أَن ننفض الغبار عن هذا المفتاح نجدنا مضطرين إلى تبيان أَنَّ الحداثة بحدِّ ذاتها، كمفردةٍ لها دلالتها اللغويَّة المرتبطة بقواعد الاشتقاق،

بريئةٌ براءة الذِّئب من دم **يوسف**، ولكن نصيبها المغبرُّ السَّيء أَن تحمل أَوزار وخطايا أُناسٍ بريئين مما لا ينبغي البرء منه لمن تنطَّع متصدِّياً لخوض غمار مثل هذه المشكلة، وهذا عينه هو مفتاح حلِّ اللغز.

صحيحٌ أَنَّ جلَّ روُّاد التَّحديث الأَوائل ـ وأَعني تحديداً الذين فتحوا هذه الأَبواب؛ أَجانب وعرباً، أَمثال: **بيكاسو وسلفادور دالي ونازك الملائكة وبدر شاكر السَّيَّاب** ـ كانوا من ذوي المواهب الإبداعيَّة التي لا يمكن نكرانها إلا أَنَّ الأَجيال اللاحقة كلُّها؛ كلُّها دون مبالغة، في الشِّعر والأَدب والفنون التَّشكيليَّة، كانت تفتقر إلى الموهبة بالدَّرجة الأُولى، وفي صميمها العقم الفكري والمعرفي بالدَّرجة الثَّانية، ولا أُبالغ إذا قلت إنَّ معظمهم لا يعرف معنى الموهبة وإن أَطنب في الحديث عنها.

لقد ركبت هذه الأَجيال تيَّارات الحداثة في ضروب الإبداع المختلفة، وبدأت بالتَّشويه والتَّخريب والتَّحطيم والتَّهشيم، والتَّهجُّم على التُّراث والقواعد والمبادئ والأُصول لأَنَّهم لن يستطيعوا أَن يكونوا شعراء وفنَّانين وأُدباء ما دامت هذه المبادئ والقواعد والأُصول قائمةً، إذ كيف يمكن لأَحدهم أَن يكون شاعراً وليس لديه موهبة الإبداع الشِّعري؟! وكيف يكون رسَّاماً وهو عاجزٌ عن فهم كيفيَّة التَّعامل مع الأَلوان وأَعجز عن امتلاك القدرة على الرَّسم؟! وكيف يكون نحَّاتاً وليس لديه من أَسرار إبداع المنحوتات شيئاً؟! إذن لا بدَّ من تشويه صورتها باعتبارها تقليديَّة وكلاسيكيَّة

ومدرسيَّة ورجعيَّة وسخيفة وآليَّة وخالية من الإبداع، وهلمَّ جرَّاً من هذه الأَلفاظ والمعاني، وسأُبرهن هذا الكلام في النَّموذج التَّالي:

الحداثيُّون يشوِّهون الفن

وكيما يكون البرهان علميَّاً لا بدَّ من الاتفاق أَولاً على مجموعةٍ من النِّقاط التي تمثِّل عماد البرهان، وتكريساً للقاء وتعميقاً للوفاق لن نطلب التَّسليم بأَيِّ حقيقةٍ ذاتيَّة، سننطلق من مبادئ عامَّةٍ جدِّ عقليَّة ومنطقيَّة، لا يختلف فيها اثنان، ولا أَعتقد أَنَّه يوجد من يعترض عليها وهو مدركٌ ماذا يفعل، لأَنَّ الاعتراض لن يكون إلاَّ مغالطةً منطقيَّة ومفارقةً عقليَّة، وهذه النِّقاط هي:

من المسلَّم به تاريخيَّاً ومعرفيَّاً أَنَّ الشِّعر والقصَّة والرواية والرَّسم والنَّحت ... فنون. وأَنَّ الفنَّ نشاطٌ إنسانيٌّ إبداعيٌّ متميِّزٌ. وأَنَّ الإبداع في أَيِّ فنٍّ من الفنون لا يمكن أَن يكون ما لم تتحقَّق ملكة الإبداع أَو الموهبة للمرء. وأَنَّ هذه الملكة الإبداعيَّة لا توجد عند كلِّ النَّاس أَبداً وإنَّما توجد لدى عددٍ قليلٍ جدَّاً منهم. وينبغي التَّمييز هنا بين ملكتي التَّذوُّق والإبداع، وحتَّى التَّذوُّق الجمالي والفنِّي ليس موجوداً عند كلِّ النَّاس بسويَّةٍ واحدة ولا متقاربة.

أَعتقد أَنَّه لا يوجد من يعترض على هذه النِّقاط، وتسريعاً للاتفاق وتبعيداً للافتراق سنتحاشى الحديث عمَّا قد يكون فيه خلاف؛ كرهافة

الإحساس والأَرضيَّة المعرفيَّة والثَّقافيَّة وصقل الموهبة وجودة امتلاك أَدوات الفن التَّعبيريَّة والإنشائيَّة وغير ذلك.

إنَّ أَوَّل نتيجةٍ تلزم عن هذه المبادئ أَو المقدِّمات هي أَنَّ الإبداع الفنيِّ مقصورٌ على فئة الفنَّانين فقط، والشُّذوذ أَو الاستثناء موجود ولكنَّه نادرٌ جدَّاً لا يقاس عليه ولا يحكم به، فنشاط الفنَّان تراكميٌّ متواصلٌ ولا يجوز أَن نطلق صفة الفنَّان على أَيِّ إنسانٍ كيفما اتفق، تماماً كما أَنَّ نظم قصيدةٍ واحدةٍ لا يمنح صاحبها حقَّ أَن يخلع عليه لقب شاعر فكذلك القصَّة والرِّواية، لأَنَّ المصادفة قد تكون هي السَّبب، أَو يكون السَّبب ظرفٌ نفسيٌّ أَو اجتماعي أَو غير ذلك، فإذا لم يتكرَّر الإبداع تظل التَّجربة في إطار المصادفة أَو ما يشبهها.

والنَّتيجة الثَّانية أَنَّ العمل الفنِّيِّ: لوحة، قصيدة، قصَّة، منحوتة ... لا يُسمَّى فنَّاً، ولا يستحقُّ أَن يكون كذلك إذا كان في مكنة أَيِّ إنسان أَن ينتج مثله أَو ما يشبهه أَو بمستواه، فرسم مجموعةٍ من الدَّوائر المتداخلة أَو المتخارجة بأَيِّ شكلٍ من الأَشكال، مثلاً، والقول إنَّها لوحة لفنَّان أَمرٌ غير مقبول لأَنَّ مثل هذا الأَمر في مكنة أَيِّ طالب في المرحلة الابتدائيَّة.

والنَّتيجة الثَّالثة، والتي تلزم عن كلِّ ما سبق أَنَّ لكلِّ فنٍّ مقوِّماته الخاصَّة، وهي مبادئه وأُصوله وقواعده ونظمه وأَساليبه .... ولا يسمَّى الفنَّان فنَّاناً ما لم يمتلك مفاتيح هذا الفنِّ وأَدواته الإبداعيَّة، وبالتَّالي فإنَّ النِّتاج الذي يشذُّ ويندُّ عن ذلك كلِّه لا يجوز أَن يعدَّ أَثراً فنِّيَّاً ولا أَن يلحق بالفن.

قد يعترض البعض على النَّتيجة الثَّالثة هذه بأَنَّنا نسدُّ أَفاق التَّطوُّر أَمام الفنِّ بهذه المقوِّمات، والحقُّ أَنَّ مثل هذا الاعتراض إن وجد فهو غير منطقيٍّ ومغالطةٌ عقليَّةٌ ومعرفيَّة، لأَنَّه لا يوجد شيءٌ بدون مقوِّمات وبالمقوِّمات يعرف الشيء ويميَّز عن كلِّ ما عداه، فإذا ما انتفت هذه المقوِّمات أَو تغيَّرت انتفى الشَّيء أَو تغيَّر، وهذا ما لا يمكن أَن ينقض أَو ينقد. وعلى الرُّغم من ذلك نقول إنَّنا لا نرمي إلى ذلك أَبداً، وكلامنا لا يؤدِّي إليه البتَّة، فمقوِّمات الشِّعر العربيِّ ـ مثلاً ـ هي ذاتها منذ غدا شعراً وحتَّى الآن، ولكنَّ هذا لم يمنع أَبداً التَّطوُّر والتَّجديد فيه وتاريخ الشِّعر خير شاهدٍ ودليلٍ على ذلك.

إنَّ هذه النَّتائج ومقدِّماتها بآنٍ معاً لازمةٌ وضروريَّة للفنِّ بحيث لا يمكن الاستغناء عنها ولا تجاوزها، لأَنَّه لولاها لانْعَدَمَ الفنُّ، وتلاشت حدوده، وبَطُل التَّمييز بين الفنِّ واللافن، ولأَصبح في مكنتنا اعتبار أَيِّ نشاطٍ فنَّاً؛ سواء كان عبثيَّاً أَو غير عبثي، هادفاً أَو غير هادف، إبداعيَّاً أَو غير إبداعي، عفويَّاً أَو مقصوداً. وعلى هذا الأَساس نستطيع أَن نتابع البرهان من خلال عرض هذا النَّموذج الحداثي في فنِّ التَّصوير.

أنموذج تطبيقي

عرفت البشريَّة فنَّ التَّصوير في مراحل مبكرة من تاريخها حيث نقش الأَوائل رسومهم على جدران الكهوف والمعابد. صحيحٌ أَنَّ هذه المرحلة لم تكن راقيةً إلا أَنَّها ما خلت من الجمال والرَّوعة. وتتالى النِّتاج الإبداعي في

هذا الفنِّ حتَّى وصل إلى أَوج تألُّقه وذروة إبداعه في عصر النَّهضة الأَوربيَّة حيث برز فنَّانون أَمثال: **هيرونيموس بوش** و**بيتر بروجيل** و**ساندرو بوتيتشيللي** و**ليوناردو دي فنشي** و**رفائيل (رافاييللو سانزيو)** و**مايكل أَنجلو** و**جيراد تيربورش** و**رامبرانت فان رين** و**خوسيه ريبيرا** وغيرهم ممن قدَّموا لوحاتٍ ساحرةٍ آسرة، رائعةٍ بارعة، تأخذ الأَلباب بعبقريَّة أَصحابها الإبداعيَّة، وجماليَّاتها التي تجاوزت الرَّوعة وفاقت الخيال. وتلت ذلك مراحل لا نستطيع أَن نسمها بالعقم، ولكنَّها إذا ما قورنت بنتاجات هؤلاء تحديداً ومن تلاهم حتَّى أَواخر القرن التَّاسع عشر إلى حدٍّ ما، فإنَّها جدُّ عقيمة. لقد شعر الفنَّانون بعد تلك المرحلة بعجزهم المطلق عن تجاوز تلك الإبداعات الخالدة على الزَّمان، فبرَّروا هذا العجز بأَنَّ لكلِّ عصرٍ فنَّه وراحوا يطلعون علينا بالاتجاهات والتَّيَّارات التي جعلت الفكر أَحْوَلاً من شدَّة ميوعتها وتماديها في الخروج عن مقوِّمات الفن، فكانت السِّرياليَّة والتَّكعيبيَّة والتَّربيعيَّة والتَّدويريَّة والرَّمزيَّة والتَّجريديَّة والتَّعبيريَّة والانطباعيَّة والتِّلقائيَّة والانسيابيَّة والعفويَّة .... وهلمَّ جرَّاً من هذه الأَلفاظ الإزعاجيَّة الإقلاقيَّة اللاإنسانيَّة.

لقد كانت بعض البدايات رائعةً حقَّاً كأَوائل السِّرياليَّة على يدي **سلفادور دالي**، وأَوائل التَّكعيبيَّة على يدي **بابلو بيكاسو**، ولكنَّ التَّقليعات الأُخرى وأَتباع الاتجاهين السَّابقين كلها كانت تعبيراً صميميَّاً عن عقد النَّقص والعاهات النَّفسيَّة لدى أَدعياء الفنِّ الذين عجزوا عن اللحاق بركب

الفن وتحقيق الشُّهرة. عجزوا عن الإبداع بالمعنى الحقيقي للإبداع لأَنَّهم يفتقرون أَصلاً إلى المواهب، فاضطروا إلى اللجوء إلى البدع التَّضليليَّة والتَّقليعات والصَّرعات التي لا يحملها ميزانٌ ولا يقبلها قبَّان. وراحوا يُنَظِّرون له ويعتبرونه فتوحاً إشراقيَّةً وإلهاماتٍ خرقت منطق العقل والتَّاريخ، ويصفِّقون لبعضهم بعضاً وكأَنَّهم جاءوا بالذِّئب من ذيله، بل كأَنَّهم غيروا وجه التَّاريخ، وهم فعلاً عطفوا التَّاريخ عن وجهته ولكن إلى أَسوأ ما يكون، وليس أَدلَّ على ذلك من الخزعبلات التي يطلعون علينا بها كلَّ ساعة ودقيقة، ويخلعون عليها من الأَسماء ما يرجحنَّ له العقل ويهتزُّ منه البدن.

إنَّ نتاجات هذه الاتجاهات كلِّها ـ إن لم نبالغ في الإجمال ـ طيشٌ عبثٌ ولهوٌ يستطيع أَيُّ إنسانٍ: كبيرٍ أَو صغير، ذكيٍّ أَو غبي، ذوَّاقٍ أَو عديم الذَّوق، أَن يأتي بمثلها وأَحسن منها وأَجمل وأَكثر نظاماً ودقَّةً وتعبيراً، والدَّليل على ذلك أَن تحضر أَيِّ معرض من معارض هذه التُّرَّهات، أَو أَن تشاهدها في مجلَّةٍ أَو جريدة، وتعود إلى البيت وتجرِّب أَن ترسم ما شاهدت، ستجد أَنَّك كنت مغبوناً بدخولك إلى المعرض، وأَنَّك أَضعت من عمرك فترة المشاهدة سدًى.

هَوَيتُ الرَّسم واحترفته في فترةٍ مبكرةٍ من حياتي ولكنِّي اعتزلته كذلك في فترةٍ مبكرةٍ لأَنِّي قَرِفتُ واشمئزَّيت ممَّا عرفتُ ورأَيت، لقد كنتُ ـ مع مطالع اطِّلاعي على مثل هذه السَّفاسف ـ أَظنُّ ذلك مزاحاً. حقَّاً لقد خلت الصُّحف والمجلاَّت مازحةً بعرضها على أَنَّها من الفنِّ، ولكنِّي صدَّقت بأَنَّهم جادُّون فيما يقولون، وتعرَّفت على (فنَّانين) من هذا النَّوع فقرَّرت أَن

أكسب نفسي مبكراً قبل أن أخسرها. أقول ذلك كيلا يظنَّني القارئ دخيلاً أو متطفِّلاً على ما ليس يخصُّني.

إنَّ الأسف الشَّديد يمثلُ في أنَّ أمثال هؤلاء يتخرَّجون في كلِّيَّات الفنون (**الجميلة**) من مختلف أسقاع العالم (ليبدعوا. على حدِّ زعمهم) ما يستطيع أن يقوم به أيُّ طفلٍ صغير، والطَّرائف والغرائب في هذا الباب جدُّ كثيرة، وأظنُّني لا أعرف منها أكثر مما يعرف المهتمُّون والمتابعون، ومع ذلك فإنِّي أميل إلى الحديث عن طرفتين من مئات أُلوف:

تصوُّر أنَّك تعرَّفت على فنَّانٍ وطلبت إليه أو طلب منك أن يرسمك، وبعد دقائق قليلة أعطاك صورتك التي رسمها فوجدت مثلثاً أو مربَّعاً مع بعض الخطوط العبثيَّة والأقواس التي لا معنى لها البتَّة، وقال لك هذا انطباعي عنك، أو هكذا رأيتك، أو هكذا جرَّدتك ... فماذا يكون موقفك؟!

دخلت معرضاً لإحدى الفنَّانات (من خرِّيجات كلِّيَّة الفنون)، وعنوانه: (وجوه أعرفها)، فصعقتُ لمَّا رأيت أن معارفها كلَّهم من صنع طباشير **إقليدس**، إنَّهم ليسوا بشراً قط ولا جِنَّاً ولا حيوانات ولا حتَّى هم من الملائكة، إنَّهم أشكالٌ هندسيَّة؛ مثلَّث، مربَّع، مستطيل، دائرة .... هذا فيه نُقطة وهذا فيه شَخْطة وهذا فيه مُخطة. وللحظِّ السَّعيد كان التِّلفزيون يصوِّر هذا المعرض مع مقابلة مع الفنَّانة وبعض الجمهور، كانت الفنَّانة تقول: هذا فلان، يعمل كذا، وشخصيَّته كذا، ولذلك رسمته هكذا .... وكانت إحدى الممثِّلات المشهورات حاضرةً فعلَّقت: إنَّني معجبةٌ بهذه

الفنَّانة المبدعة، انظر إلى الأَلوان هنا والخلفيَّة هناك والتَّنافر هنا والتَّقارب هناك ... لقد استطاعت أَن تعبِّر حقَّاً عن شخصيَّات أَصدقائها .... لا أُخفيكم أَنَّ بُرجاً من رأسي طار وصارت الدُّنيا تدور بي من الممثلة التي واصلت وفاصلت وقاربت وباعدت كإصبعين في كفَّي، ومن (الفنَّانة) التي ستجعل معارفها في معرض النَّحت من المخاريط والأُسطوانات وما كان مجسَّماً من أَمثالها. وحمدت الله حمداً كثيراً على أَنِّي لم أَكن من معارفها لأَنَّها لو قالت لي: هذا أَنت وكنت في نظرها شبه منحرفٍ أَو مستطيلاً أَو مدوَّراً لصفعتها كفَّاً تطيِّر أَسنانها ... ومَنْ قَبِلَ أَن يكون كذلك فهو حر أَو **خرمنف** أَو شيء يشتقُّ من هذا.

أَمَّا الحادثة الثَّانية فهي مما لا يُظنُّ أَنَّها لا تكون إلا في المسلسلات والأَفلام؛ كنت في مكتب أَحد الأَصدقاء المنتمين إلى حقل الفكر والبحث، ولا يمتُّ بأَيِّ صلةٍ إلى الرَّسم، ولا بأَيِّ شكلٍ من الأَشكال، ولا حتَّى في تذوّق هذا الفنِّ . مع عذري منه . وفي أَثناء الحوار كانت يده تعبث بالقلم على ورقةٍ صغيرة تقارب القصاصة، وإذ به ينتهي إلى الشَّكل . رقم (١) . ثمَّ تابع العبث غير المقصود فانتهى إلى الشَّكل الثَّاني . رقم (٢) . وقبل أَن أَهمَّ بالخروج قال لمديرة مكتبه: «سطِّري إطاراً لهذا الشَّكل وأَكمليه تظليلاً» فكان الشَّكل . رقم (٣) .

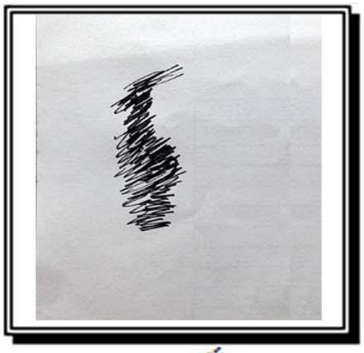

الشَّكل رقم (١)

الشَّكل رقم (٢)

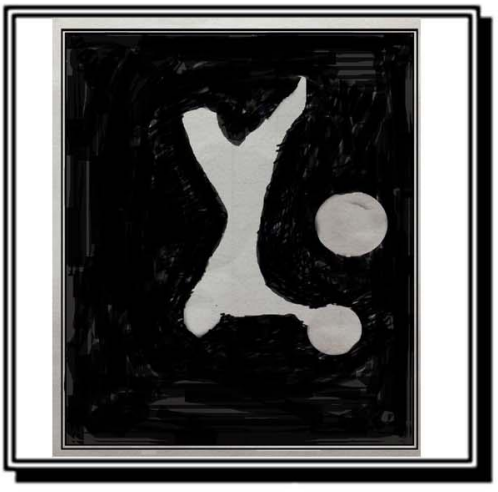

الشَّكل رقم (٣)

وتشاء المصادفة أَن اضطرَّ لزيارته في اليوم التَّالي فوجدت عنده شاعراً وناقدا وصحافيَّاً، وما كدت أَجلس حتَّى قال لي النَّاقد:

. «أَرأَيت ما رسم الأُستاذ (س)؟».

فنظرت إلى حيث أَشار وإذ بعبث الأَمس لوحة مكبَّرة بآلة التَّصوير، وكم كانت دهشتي عندما ناولنا الأُستاذ (س) ثمرة إبداعه الفريدة لنقول فيها رأَينا، وبما أَنَّ النَّاقد قد رآها أَوَّلاً فقد قال:

. «الحقيقة أَنِّي أَوَّل ما رأيتها تبادر إلى ذهني أَنَّها تعبِّر عن الدِّيمقراطيَّة، أَلا ترون (البوط ـ الحذاء) كيف أَحكم تملُّكه من أَرضيَّته وانتبج من الأَعلى وكأَنَّه يريد أَن يقول إنَّه يمتصُّ الدِّماء؟!».

ولكنَّ الشَّاعر قال:

. «بالعكس، أَنا لا أَرى أَيَّ حذاء، إنَّه رأَس حصان جامح يعبِّر عن الانعتاق والحريَّة».

فاستغرب النَّاقد والأُستاذ واستهجنا ذلك، وكم كانت الدَّهشة عند تَبَيُّنِ أَنَّه يمسك (اللوحة) بالمقلوب تماماً، فَسُرَّ الفنَّان لذلك وقال:

. «أَي والله، أَظنُّها تُقرأ من أَكثر من وجه».

وهذا ما فعله الصِّحافيُّ عندما أَمسكها بالعرض وادَّعى أَنَّه يرى رأس ثور خانع بما يعبِّر عن كذا وكذا ... وأَعاد النَّاقد الدَّور إليه فنظر إليها بالعرض المقلوب وقال:

. «يا إلهي!! انظروا أَليس خفَّاشاً يخترق الظَّلام؟!...».

لقد تذكَّرت ما ابتدعه **أدونيس** وسمَّاه الشِّعر المفتوح، وهو عبارة عن كلام سيء الرَّبط، عديم التَّماسك، مشتَّت المعنى، خالٍ من علامات التَّرقيم، والسَّبب كما يدَّعي هو ترك القارئ حرَّاً في فهم النَّص كما يشاء، يبدأ من حيث يريد وينتهي أَين يحب، ويستنتج على قدر فهمه.

والغريب أَيضاً أَنَّني زرت هذا الفنَّان الجديد بعد فترة فوجدته قد رسم لوحات جديدة مماثلة وزيَّن بها جدران مكتبه وصار يتحدَّث عن الإشراقة والومضة الخاصَّة بكلِّ لوحة وكيف كان يداهمه الإلهام على حين غرَّة وكيف وكيف ....

إنَّ نماذج هذا الفنَّان بالفطرة، كما قال عن ذاته وقالوا عنه، وتلك الفنَّانة بالدِّراسة الأَكاديميَّة، كثيرةٌ جدَّاً، وللأَسف هي المسيطرة والمتسيِّدة، ولذلك لا داعي لعرض نماذج لبعض الرُّسومات، إذا أَردت أَن تتأَكَّد تابع المعارض وما تنشره المجلاَّت والصُّحف وستجد كلَّ ما يكدِّر صفوك ويعكِّر مزاجك. والمفارقة المضحكة هنا أَنَّهم يدَّعون أَنَّ سبب هذه الكثرة الكاثرة من هذا النَّوع من الفن هي تراجع الفنِّ التَّقليدي والكلاسيكي أَمامه، لأَنَّ هذا الجديد هو الأَصحُّ والأَجمل والمعبَّر فعلاً عن روح العصر.

فما مدى مصداقيَّة هذا الادِّعاء؟

هل انتصرت الحداثة؟

نظراً لسمعة الفنِّ العطرة عبر التَّاريخ، ولأَنَّه يداعب الأَحاسيس والمشاعر بصوره الجماليَّة التي تخاطب الرُّوح

مباشرة من غيرما حجابٍ ولا حجاز، وما تتركه هذه الصُّور في النَّفس من آثار المتعة واللذَّة، فقد ترسَّخ في أَعماق اللاشعور الإنساني طموحٌ كبيرٌ إلى إبداع الفن؛ لا يوجد إنسانٌ . في اعتقادي ـ لم يحاول كتابة الشِّعر في المراحل المبكرة من حياته، ولا يوجد من لم يتمنَّ أَن يكون شاعراً، أَن يكون فنَّاناً، ولكن سنَّة الكون اقتضت . فيما اقتضت ـ أَلا يكون شاعراً إلا من امتلك موهبة الإبداع الشِّعري، وأَلا يكون رسَّاماً إلا من أُوتي ملكة الإبداع في هذا الفن ... وهكذا في كلِّ الفنون. ولكن مع استشراء بدعة الحداثة وتحولها من الفن إلى اللافن، من الإبداع إلى اللاإبداع، أَصبح في مكنة كلِّ إنسان أَن يكون فنَّاناً على غرار الحداثيِّين؛ في الشِّعر والنَّحت والتَّصوير والقصَّة والمقالة .... وهذا بالتَّحديد ما يبرِّر انتشار هذا الفن وسيطرته، وقد تعزَّز هذا الانتشار والسَّيطرة بهيمنة هؤلاء على وسائل الإعلام المختلفة وفرضهم ذواتهم من خلالها على أَنَّهم هم الفنَّانون وغيرهم الدَّجَّالون، هم المبدعون وغيرهم المقلِّدون، هم التَّقدُّميون وغيرهم الرَّجعيون، هم الصَّادقون وغيرهم المنافقون. وبالتَّالي فإنَّ ادِّعاءهم أَنَّهم هم المنتصرون، وأَنَّ الفنَّ (الكلاسيكي أَو التَّقليدي) قد تراجع وتقهقر أَمامهم إنَّما ادِّعاءٌ باطلٌ واهمٌ لا أَساس له من الصِّحَّة، ولا يعدو كونه كذباً على

الـذَّات قبـل أَن يكـون كـذباً علـى الآخـرين لأَنَّ الجمهـور لم يتقبَّـل هـذه (الخـزعبلات) والهرطقـات والصَّـرعات، خـلاف مـا ينسـبون إليـه، ودليلنـا علـى ذلـك هـو الانقطـاع الكبـير بـين الجمهـور والفـن، والتَّـدهور الكبـير للفن في مختلف بلدان العالم، وهذا مثبتٌ مشهود.

٥ تعميم ما سبق

قـد كنَّـا نميـل إلى إيـراد أَكثـر مـن نمـوذج للبرهـان علـى أَنَّ بدعـة الحـداثيِّين إنَّمـا ولـدت وانتشـرت لتحقيـق مـآرب جـدَّ خاصَّـة لمـدَّعي الفـن ممـن افتقـروا إلى المواهـب الحقَّـة والخيـال الإبـداعي. ولكـنَّ الخـوف مـن الإطالـة المملَّـة والتِّكـرار الـذي سنضـطرُّ إليـه في المعـاني والأَغـراض أَلجأنـا ١٠ إلى الاختصـار والإيجـاز، والاقتصـار علـى نمـوذجٍ واحـدٍ أَخـذناه مـن فـنِّ التَّصـوير. والحـقُّ أَنَّ هـذا الاقتصـار مـبرَّرٌ ومسـوَّغ لأَنَّنـا نسـتطيع تعمـيم هـذا النَّمـوذج علـى الفنـون الباقيـة بـدون أَيِّ خـوفٍ أَو حـذر، لأَنَّ مـا حـدث في الفنـون الأُخـرى لا يفـترق أَبـداً عمَّـا حـدث فـنِّ التَّصـوير مـن حيـث الاعتبـارات كلِّهـا، بـدءاً مـن العقـم الإبـداعي، والخـواء الفكـري، ١٥ والقصـور المعـرفي، والافتقـار إلى الموهبـة، وصـولاً إلى إنتـاجٍ سـخيفٍ يسـتطيع أَيُّ إنسـانٍ لا علاقـة لـه بـالفنِّ أَن يـأتي بمثلـه وأَحسـن منـه. **ونحـن إذ نقـول ذلـك فإنَّنـا لا نـدَّعي أَبـداً، ولا نـتهم أَحـداً، إنَّنـا نحكـم حكمـاً منطقيَّـاً موضـوعيَّاً لا يسـتطيع الواقـع أَن يكذِّبـه مطلقـاً، ويسـتطيع أَيُّ واحـدٍ أَن يتَّبـع المـنهج الـذي اسـتخدمناه،**

وأقررنا فيه نقاط انطلاقٍ لا يمكن لأَحدٍ أَن ينكرها، وسيصل إلى هذه النَّتائج بكلِّ بساطة. ولذلك نجدنا غير مضطرِّين إلى الإكثار من الشَّواهد.

إنَّ ما حدث في الشِّعر والقصَّة والرِّواية وعموم الفنون إنَّما هو شيءٌ واحدٌ، لأَنَّه يستند إلى الأُصول ذاتها والاتِّجاهات أَو التَّيَّارات ذاتها، وإن اختلف روَّاد التَّحديث فإنَّ المُنظِّرين والعقائديُّين الذين تبنُّوا ذلك وكافحوا من أَجله هم ذاتهم في الفنون كلِّها.

فالشِّعر على سبيل المثال، وفي كلِّ لغات العالم، له وزنه وإيقاعاته الخاصَّة وقوافيه، وقد حافظ على مكانته السَّامية في نفوس النَّاس حتَّى طلع علينا المتعصِّبان عرقيَّاً ودينيَّاً: **ت.س.إليوت وعزرا باوند دزرائيلي**، والمراهق **رامبو** الذي أَلقى قنبلته في تحرير الشِّعر من الوزن والقافية وهجر الشِّعر وتحوَّل إلى تاجر قبل أَن يتمَّ العشرين من عمره. ولن نطيل في الحديث عن هذا المسمَّى شعراً ـ ولا سيَّما أَنَّنا خصصنا كتاباً لهذا الموضوع(*) ـ ولكن حسبنا أَن نتساءل بعض التَّساؤلات:

إذا افتقر الشِّعر إلى الوزن والموسيقى والإيقاع الخاص به ومن ثمَّ القافية، فما الذي سيميِّزه عن النَّثر؟ أَهو نثر الكلمات على السُّطور اعتباطاً؟ يمكن نثر أَيِّ نصٍّ على هذا النَّحو، شعراً كان أَم

(*) . هذا الكتاب هو: انهيار الشِّعر الحر . دار الثَّقافة . دمشق . ١٩٩٤م.

نثـراً. يقولـون: هنـاك الموسـيقى الدَّاخليَّـة، فمـا هـي هـذه الموسـيقى الدَّاخليَّـة؟ ثمَّ إنَّ أَيَّ نـصٍّ . مهمـا كـان ـ ينطـوي علـى هـذه الموسـيقى الـتي تـدَّعونها معتمـدين علـى علـم الدَّلالـة والأَلسـنيَّة الـذي شُـوِّه كمـا شُـوِّهت الفنـون، وكلامنـا هـذا مـا زال علـى الكـلام المفهـوم ممـا يسـمَّى شـعراً ولـيس بشـعر، والطَّامَّـة الكـبرى والمصـيبة العظمـى عنـدما ننتقـل إلى الشِّـعر الرَّمـزي والمجـرَّد والسِّـريالي والتَّعبـيري والصُّـوفي (المعاصـر) وغيرهـا مـن اتجاهـات موغلـةٍ في الغرابـة المنفِّـرة؛ سـتقرأ عنـاوين لا تستسـيغها أُذنٌ ولا يقبلهـا عقـل، وتقـرأ تحتهـا كلامـاً لا تفهـمُ منـه شـيئاً ولا تفقـه لـه سـبكاً ولا ربطـاً، ناهيـك عـن الأَخطـاء اللغويَّـة والنَّحويَّـة والتَّراكيـب التَّلفيقيَّـة والتَّعـابير الـتي لا يمكـن وصـفها إلا بالهذيانيَّـة لأَنَّهـا لا تقـوم علـى أَيِّ أَسـاس مـن أُسـس الكـلام والتَّفكـير، وفـوق ذلـك كلِّـه يتَّهمـون القـرَّاء والمتلقِّـين بالغبـاء والجهـل والحمـق لعجـزهم عـن فهـم هـذا الفـن، وإن لم يكـن ذلـك تمامـاً فأَقـلُّ مـا يكـون هـو الادِّعـاء بوجـود فجـوةٍ فكريَّـةٍ شاسـعة بـين عبقريَّـاتهم الخارقـة ورِاعيَّـة العـوام. إنَّنـا أَمـام العجـب العُجـاب، وحقَّـاً أَعـان الله إنسـان عصـرنا علـى الصَّـبر والحلـم والتَّحمُّـل، ففـوق كـلِّ إرباكـات العصـر التِّقانيَّـة والعلميَّـة والأَخلاقيَّـة والنَّفسـيَّة جـاءت مُسـوخ الحداثـيِّين في الفـنِّ لتزيـدَ الطِّـين بِلَّـةً بـدل أَن تنهـد لتخفيـف أَعبائـه ومعاناتـه، وبـدل أَن تـرفَّ برفيـف الجمـال علـى روحه .... **لقد تحوَّلت الفنون . بعزم الحداثـيِّين ـ إلى غُرابٍ ينعقُ**

على جُثث ضحايا العصر وفوق رؤوس المتفائلين لينزع التَّفاؤل من نفوسهم.

الحداثيُّون العرب

لقد تحدَّثنا غير مرَّةٍ، وفصَّلنا في أَسباب محاربة الحداثة ـ الحداثة والفكر المستورد ـ ولا ضير فيما أَعتقد من عودةٍ إلماحيَّةٍ إلى هذه العلاقة بين حداثة الغرب وحداثة الشَّرق.

إنَّ كلَّ ما سبق وأَسلفناه ينطبق على حداثيِّينا انطباقاً كاملاً، ويزيد حداثيُّونا النَّقائص السَّابقة بمثالب ومعايب إضافيَّة لم توجد لدى حداثيي الغرب، ويعيننا على فهم ذلك خبران طريفان؛ واحد جديد وآخر قديم:

أَورد **يحيى حقِّي** في (تعال معي إلى أَكلونسير) هذه الطُّرفة، يقول: «من (القفشات) التي يتندَّر بها الغرب على الشَّرق رواية تزعم أَنَّ شاه إيران ـ من أُسرة **كاشفار** إبَّان انهيارها ـ حين سمع تجربة الآلات صُعِقَ طرباً، ظنَّ أَنَّهم يعزفون لحناً جميلاً، طلب استعادته، وعبثاً حاولوا إفهامه أَنَّ اللحن قادمٌ وأَنَّ الذي سمعه هو النَّشاز بعينه (ص٧/٨)».

أَمَّا الخبر القديم: تحلَّق الصِّبية حول **أَشعب** (الشَّخصيَّة التُّراثيَّة المعروفة) وراحوا يهزأون به، ويؤذونه بكلامهم وأَيديهم، فاحتال ليبعدهم عنه بقوله: في تلك الحارة عرسٌ فاذهبوا إليه. ولـمَّا شاهدهم يتراكضون نحو الاتِّجاه الذي أَشار إليه ركض في إثرهم وهو يقول في نفسه: عرسٌ ويفوتني خيره؟!!

إنَّ ما حدث مع حداثيِّينا هو عين ما حدث في هاتين الطُّرفتين، لقد تفتَّق بعض الغربيِّين ببعض التَّقليعات والصَّرعات فظنَّناهم يغرِّدون أَعذب الأَنغام ويشدون بأَروع الأَلحان، وعندما تراجع الغربيُّون عن غلطهم وتخبُّطهم وحاربوا هذا العسف والشُّذوذ أَنكرنا عليهم ذلك، وأَصررنا على تصديق الكذبة التي كذبناها.

من يحقُّ له التَّحديث؟(*)

(*) . نشر هذا الفصل في جريدة الثَّقافة الأُسبوعيَّة في العدد ٢ السَّبت ١٤ شعبان ١٤١٥ هـ الموافق لـ ١٤ كانون الثَّاني ١٩٩٥م.

ليس لأَحدٍ أَن يدَّعيَ الوصاية على مُشاعٍ بين البشر، وليس لأَحدٍ، مهما عزَّ وبزَّ وسما وعلا وأَيَّاً كانت صفته، أَن يزعم أَنَّه أَحرص من غيره على ضربٍ من هذا المُشاع: كالماء والهواء والنُّور واللغة والعمل والشِّعر والرَّسم وضروب الفنِّ كلِّها، وبالتَّالي فإنَّ التَّحديث والتَّجديد في ذلك كلِّه أَمرٌ مشروعٌ ولا يحقُّ لامرءٍ مهما اتَّخذ من صفةٍ أَن يحجر هذا الحقَّ أَو يُعطِّله، وهنا تقع المشكلة وتتفاقم أَبعادها، فهل التَّحديث . بالمعنى المؤطَّر هنا . أَمرٌ مُشاعٌ أَيضاً؟.

أَثبت أَنَّ تجديدك نابعٌ من عجز القديم عن استيعابك نحني لك الهامات احتراماً، أَمَّا إن كان تجديدك بسبب عجزك عن استيعاب القديم فهيء نفسك لاحتقار الأَجيال.

قيل لملك الشِّعر العربي **أَبي الطَّيِّب المتنبِّي** في أَمر ابتدعه: لا تقول العرب مثل هذا، أَو: لا يكون هذا في لغة العرب أَو شعرها. فأَجابه **أَبو الطَّيِّب** إجابةً ربَّما لم يفهمها وربَّما لا يقف على معناها إلا قليلون، إذ قال: أَنا أَخلق اللغة.

ولقد تعرَّض **أَبو تمَّام** ـ قدوة **المتنبِّي** وأَحد أَكبر أَعلام التَّجديد في الشِّعر العربي ـ لقصَّةٍ مشابهة، وذلك عندما سأَله أَحدهم: لم تقول ما لا يُفهم؟ ولم تقلَّ بداهة المعلِّم وأَلمعيَّته عمَّا كان عند تلميذه الفذِّ فقال للسَّائل: ولمَ لا تفهم ما يقال؟! ولقد اهتمَّ معاصرو شاعرنا بتجديداته التي حظيت بانتشارٍ واشتهارٍ واسعين، وقد قال أَحد الأَعراب بما يشبه هذه القصَّة: إمَّا أَن يكون ما قالته العرب الشِّعرَ وليس **أَبو تمَّام** بشاعر، أَو أَن يكون وحده لشَّاعر وليس كلُّ ما عداه بشاعر.

إنَّ هاتين القصَّتين تضعانا أَمام مشكلة الحداثة والتَّجديد وجهاً لوجه، وتفتحان أَمامنا كوةً جديدةً لنلج منها إلى صلب هذه المشكلة وماهيَّتها، بل إنَّهما تفرضان علينا إعادة نظرتنا ومعالجتنا لهذه المعضلة التي

سيطرت على عقولنا منذ فترةٍ طويلةٍ ولم تَزلْ تَلفُّ في أَدمغتنا وتدور كريحٍ تعصفُ في كوخٍ مُخَلَّعٍ يومَ شِتاءٍ ماطرٍ بارد.

يتجلَّى إطار هذه الكوة المفتوحة في سؤال حسَّاسٍ وجوهريٍّ يمكِّننا من وضع إصبعنا على عين الجرح، وهو: **من يحقُّ له التَّحديث والتَّجديد؟**

التَّحديث والتَّجديد بمعنى الخلق الخارق للمألوف الذي يطوي قديماً طيَّاً فعليَّاً ويفارقه، لا بمعنى حداثة السَّيرورة التَّاريخيَّة والسِّياق التَّطوري المألوف عادةً وطبعاً، وإن خالف هذا العرف في بعض الأَحايين.

لقد أَخذ بعض الشُّبَّان هاتين القصَّتين، وما شابههما، منطلقاً لنفث كروبهم وعقد نقصهم، بل لنقل: للتَّعبير عن رغبات طبيعيَّة في النَّفس البشريَّة، ولكن على نحوٍ نابٍ غير مستحسنٍ ولا مقبولٍ في معظم الأَحيان وهذا ما سنحاول جلو صدأه فيما يلي:

ليس لأَحدٍ أَن يدَّعيَ الوصاية على مُشاعٍ بين البشر، وليس لأَحدٍ، مهما عزَّ وبزَّ وسما وعلا وأَيَّاً كانت صفته، أَن يزعم أَنَّه أَحرص من غيره على ضربٍ من هذا المُشاع: كالماء والهواء والنُّور واللغة والعمل والشِّعر والرَّسم وضروب الفنِّ كلِّها، وبالتَّالي فإنَّ التَّحديث والتَّجديد في ذلك كلِّه أَمرٌ مشروعٌ ولا يحقُّ لامرءٍ مهما اتَّخذ من صفةٍ أَن يحجر هذا الحقَّ أَو يُعطِّله، وهنا تقع المشكلة وتتفاقم أَبعادها، فهل التَّحديث . بالمعنى المؤطَّر هنا . أَمرٌ مُشاعٌ أَيضاً؟ وإن لم يكن كذلك فمن ذا الذي يحقُّ له التَّحديث الضَّارب بالمألوف عُرض الحائط، كأن يقول مثلاً: بحور الشِّعر سيئة لا تفي

بالغرض وهذه أبحري أو هذا شعري الجديد. أو يقول مثلاً: الإصرار على كسر همزة إنَّ بعد القول لا معنى له ويجب تجويز الفتح والكسر ..... وهلمَّ جرَّاً من هذه الأمثلة؟

صحيحٌ أنَّ ما ذكرناه أُمور مُشاعةٌ بين النَّاس على حدٍّ سواء، وكلُّ واحدٍ يملك منها أو يملكها بقدر ما يملكها الآخر، ولكن هذه المشاعيَّة مرتبطةٌ بالحقِّ العام؛ حقِّ الجماعة والمجتمع، وبالتَّالي فإنَّ مشروعيَّة التَّعديل والتَّجديد والتَّغيير ... محفوفةٌ بالإطار الشَّخصي الذي لا يعتدي على الحقِّ العام، ولذلك فإنَّ حجب الوصاية عن الأفراد لا يعني انتفاء الوصاية فهي نَوْطٌ بالمؤسَّسات الاجتماعيَّة والاعتباريَّة المختلفة، فحماية الهواء من التَّلوُّث مسؤوليَّة الدَّولة وكذلك الوصاية على الأمواه، واللغة والفنون مسؤوليَّةٌ معلَّقةٌ يعتنقها المجتمع ولأنَّ المجتمع غائبٌ عن مثل هذه المسؤوليَّة لاعتبارات طبيعيَّة فإنَّها ـ المسؤوليَّة ـ مُعلَّقةٌ برقاب الفئة المثقَّفة الواعية كشريحةٍ واسعةٍ وأغلبيَّة متماسكة مؤتلفة.

كلُّ هذا غير وافٍ ولا يعطي الجواب الذي نريد. والحقُّ أنَّنا لم نقصد منه جواباً بقدر ما أردناه تمهيداً للجواب، وسنستبق مكان مبتغى التَّمهيد لندلي به هنا: مهما كان موقفنا أو رأينا، وكذلك اجتهاد غيرنا، في مشروعيَّة ومشاعيَّة حقِّ الاجتهاد والتَّجديد والتَّغيير والتَّبديل .... في هذه المُشاعات فإنَّنا لا نستطيع في خاتمة المطاف أن نحجب هذا الحقَّ عن أحد ـ بغضِّ النَّظر عن كثيرٍ من الاعتبارات ـ ولا أن نقصره على أحد، ولكنَّ الزَّمان وحده الكفيل بديمومة الصَّحيح الصَّائب وباندثار الخاطئ المتعثِّر، وكلُّ ذلك

نَوْطٌ بالحقِّ العام والمؤسَّسات الاجتماعيَّة والاعتباريَّة المتعدِّدة التي تأخذ على عاتقها تقبُّل المحدث واستحسانه، ومن ثمَّ تداوله وترويجه أَو رفضه واستنكاره وبالتَّالي عدم تعاطي التَّعامل معه أَو تداوله، الأَمر الذي يقود بالضَّرورة إلى تلاشيه أَو زواله. والتَّاريخ خير شاهدٍ ودليلٍ على ذلك، فكثيرون أُولئك الذين ابتكروا كلماتٍ جديدة وحدَّثوا في القيم الاجتماعيَّة والجماليَّة والأَخلاقيَّة ... فعاش ما عاش وزال ما زال، ونُسي كلُّ ما دار حولها من سجالٍ وصراعٍ وجدال.

هنا نعود إلى سؤالنا الآنف: **من يحقُّ له التَّحديث؟**

لا شكَّ في أَنَّ طاقةً من الضَّوء كافيةً قد انتثرت على مشكلتنا تسوِّغ لنا أَن نبدأ طرح رأينا فيها؛ كما أَنَّه لا يجوز لغير الطَّبيب أَن يعالج المرضى، وكما أَنَّه لا يحقُّ لغير الصَّيدلاني أَن يركِّب الأَدوية فكذلك لا يحقُّ لغير الشَّاعر أَن يجتهد في الشِّعر، ولا يحقُّ للسِّكِّير أَو غير الملتزم بالتَّعاليم الدِّينيَّة أَن يفتي في الدِّين، وكذلك في الرَّسم والنَّحت واللغة والعمارة .... ومن الجور والجهل بل والغباء أَن نقبل هذا الحكم في مكان ولا نقبله في مكانٍ آخر، فلا أَحد يسلِّم نفسه لغير الطَّبيب إذا مرض، وهذا ما لا يمكن نكرانه، فكيف نأمن أَن نثق بتجديداتِ مَنْ لم يكن مختصَّاً في أَيٍّ من المجالات السَّابقة؟ إنَّ التَّساهل واللامبالاة ناجمين عن عدم الإحساس بالمسؤوليَّة بالدَّرجة الأُولى، وهذا الإحساس لا يمتلكه إلا من يعاني من نتائجه وفي مكنته التَّبصُّر بالنَّتائج سلفاً.

هذا يعني بدايةً أَنَّ الحقَّ في التحديث محصورٌ بأَهل الاختصاص من حيث المبدأ، دون أَن ينفي بالإطلاق إمكان انبثاقه من غير المختصِّين، ولكنَّ ذلك شاذٌّ ونادر، على أَنَّ المختصِّين أَنفسهم متفاوتون في درجات فهمهم واتقانهم لاختصاصاتهم، فليس كلُّ الموسيقيين سواءٌ ولا كلُّ الشُّعراء كبعضهم بعضاً ولا كلُّ الأَطباء في سويَّةٍ واحدة .... ذلك أَنَّنا في كلِّ اختصاصٍ أَمام فريقين: فريقٌ على محض الاختصاص وفريقٌ ذو روحٍ إبداعيَّة، والمبدعون الحقيقيَّون وحدهم هم أَصحاب الحقِّ في التَّحديث والتَّجديد، وهم يمارسون ذلك، غالباً، بصورةٍ لا شعوريَّةٍ، وبدوافعَ لإبداعيَّة صِرفة لا تُغرض إلى معارضة المألوف بقدر ما تصبو إلى إرضاء الذَّات المبدعة وإرواء تطلُّعها إلى التَّميُّز والتَّمايز.

ها هنا تعترضنا مشكلةٌ جديدةٌ هي الأَهمُّ والأَخطر، بل هي مربط الفرس كما يقال، هذه المشكلة هي عدم معرفة المرء قدر نفسه وتطاوله على ما ليس يحقُّ له: يسمُّونها غروراً، تكبُّراً، طيشاً، مراهقةً، تسرُّعاً، نرجسيَّةً ... وهذه التَّسميات كلُّها صحيحةٌ وخاطئةٌ بآنٍ معاً؛ صحيحةٌ بالنَّظر إلى أُسلوبها ونتائجها. وخاطئةٌ لأَنَّها لم تحاول الحفر تحت ظواهرها للوصول إلى أُسسها الطَّبيعيَّة، إلى البواعث الفطريَّة التي تنبتها. ولذلك لن نميل إلى هذه التَّسميات وسنحاول كشف الغطاء عنها.

يقول **أَبو عثمان الجاحظ**: «إنِّي رأَيتُ الإنسانَ متماسكاً وفوقَ المتماسكِ حتَّى إذا سُئِلَ عن رأيه في ابنه أَو شعره فإنَّه يكونُ متهافتاً وفوق

المتهافت». وجلى المعنى ذاته **ابنُ خلدون** إذ قال بعد حثِّه المبدعين على مراجعة نتاجاتهم بالنَّقد والتَّنقيح: «فإنَّ الإنسان مفتونٌ ببنات فكره وإبداع قريحته». والحقُّ أَنَّ هذه ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ معروفةٌ يمكن إدراكها بسهولةٍ ويسرٍ عند المبدعين جميعهم، حتَّى المبدع النَّاقد الذي يقدر الوقوف على عثراته وعيوبه لا يستطيع أَن يتنكَّر لإبداعه، وليس في مكنته إلا أَن يعدَّه بضعاً منه كولده. على أَنَّ ذلك يختلف تماماً عن الثِّقة بالنَّفس والثِّقة بإبداعها وروعته، هذا الأَمر الذي صاغه **أَبو الطَّيب المتنبِّي** بقوله:

أَنامُ ملءَ جفوني عن شواردها ويسهرُ الخلقُ جرَّاها ويختصمُ

وترتبط بهذه المشكلة **معضلةٌ أُخرى هي ظاهرة ادِّعاء الموهبة والإبداع وتوهُّم امتلاك المواهب، وهذه معضلةٌ أَعيت من يداويها.** نعم، إنَّ المبدعين الحقيقيِّين المنطلقين في إبداعاتهم من مواهب وملكات إبداعيَّة قد يخطئوا أَو يتعثَّروا ... إلاَّ أَنَّهم يظلُّون مبدعين وموهوبين، ولكن كيف تتفاهمُ مع مدَّعٍ منتبج الذَّات منتفخها، متورِّم الأَفكار والآراء، يحسب ـ إن كان ميدان ادِّعائه الشعر ـ أَنَّه خاتم الشُّعراء قياساً على خاتم الأَنبياء، ويظنُّ ـ إن كان الرَّسم اختصاصه في الدِّعاء ـ أَنَّه بموته سيموت فنُّ الرَّسم .... إن ذُكر **المتنبِّي** أَمامه ظنَّه ممثِّلاً، وإن ذُكر **رافائيل** خاله لاعب كرة قدم، وإن صادفه حسن الحظِّ وعرف أَنَّ **المتنبِّي** شاعراً حقَّره ولعن تقليديَّته و(كلاسيكيَّته)، وربَّما قال: (كلُّ شعره لا يساوي وصفي للقشِّ المخملي على ثغر الجمر في قصيدتي الأَخيرة أَو غيرها .....). وفي حين

يقف فقهاء لغتنا المعاصرين، الكبار، ساعاتٍ مفكِّرين قبل الإفتاء في جواز النِّسبة إلى جمعٍ له مفردٌ من لفظه نجد الواحد من هؤلاء يجمعُ خطأً وينسب إلى هذا الجمع الخطأ، ويفتي في هذا وذاك ويقترح حذف هذا وذاك ويرى أَنَّ القدماء قد أَخطأوا في هذه القاعدة وتلك ....

والطَّامَّة الكبرى أَنَّ أَمثال هذا المصاب بإسهال الاجتهادات التَّحديثيَّة في اللغة والشِّعر عاجزٌ عن الكلام بالفصحى دقيقةً كاملةً دون ستين خطأً لغويَّاً ونحويَّاً وأُسلوبيَّاً .... وربَّما عجز موسيقيو هذا النَّوع عن التَّمييز بين الرَّصد والرَّفس أَو بين الـ «فا» والـ «حا»، وتتفاقم المشكلة وتتعاظم بوصول هؤلاء، بطريقةٍ أَو بأُخرى، إلى منابر الإعلام وفرضهم أَساليبهم وحداثاتهم على الآخرين؛ مبدين ومتلقِّين. وهنا أَستطيع القول ومن غير أَيِّ تردُّدٍ: إنَّ حداثة هؤلاء هي المرفوضة المنبوذة، بل كلَّ بدعهم التي يظنُّونها إبداعاً.

ولكن ماذا لو كان ثمَّة مبدعون يأتون بمثل ما يأتي به هؤلاء الأَقزام؟ هنا نعود إلى تساؤلنا الذي جعلناه عنواناً وهو: من يحقُّ له التَّحديث؟ بل لنقل، ما دمنا وصلنا إلى هنا، هل التَّحديث من حقِّ المبدعين كلِّهم؟ الحقُّ؛ إنْ قلنا بالجواز وقعنا في مشكلة، وإنْ قلنا بالتَّخصيص وقعنا في مشكلة، فما الحلُّ إذن؟

قبل أَن نعرض ما نعتقده حلاًّ لا بدَّ من الإشارة إلى مسألة ملحفة الأَهمِّيَّة وهي أَنَّنا كثيراً ما نلتقي مع أُناسٍ يعدُّون ـ عند الجرد السَّنوي أَو تصفية الحسابات ـ من المبدعين ولكنَّهم إمَّا لا يمتلكون أَدوات الإبداع أَو لا

يحسنون امتلاكها؛ فالشَّاعر الذي لا يمتلك اللغة امتلاكاً متميِّزاً ومعها موسيقى الشِّعر وأَوزانه ليس خليقاً بأن يكون شاعراً، والموسيقي الذي لا يميِّز بين النَّغمات غير جديرٍ بأَن يكون موسيقيَّاً، وهكذا شأن الرَّسَّام والنَّحَّات والقاصِّ والمسرحي .... والحقُّ أَنَّني لا أَميل إلى اعتبار هؤلاء مبدعين وإنَّما هم من زمرة المتطفِّلين الذين سبق الحديث فيهم، وإذا استثنيناهم من المبدعين لم نجد غضاضةً في تجويز التَّحديث للمبدعين كلِّهم، دون أَن يعني ذلك صحَّة أَو صوابيَّة كلَّ تحديث منهم، فكلُّ جديد يحمل بين طيَّاته إمكان الخطأ والصَّواب، وينطوي على إمكان الثَّبات والاستمرار وإمكان الإجهاض والموت المباشر، وليس الاستمرار دائماً دليل الصَّواب ولا الموت المباشر دائماً دليل الخطأ، فكلُّ شيء مرتبطٌ بعلائقه مع المعطيات الأُخرى التي تميته أَو تحييه. وعند هذه النُّقطة يأتي دور القيم والمعايير الجمعيَّة التي تلعب الدور الحاسم في إماتةِ أَو إحياء الوليد الجديد.

ولذلك نقول: ثمَّة شروطٌ ضروريَّةٌ ينبغي توفُّرها فيمن يرغب أَو ينزع إلى التَّحديث، وتتمثَّل هذه الشُّروط بامتلاك الموهبة الإبداعيَّة امتلاكاً أَكيداً وقويَّاً، وصقل هذه الموهبة وتنميتها وتغذيتها بالثَّقافة المناسبة لها وبأَكبر قدر ممكن، وامتلاك أَدوات الإبداع اللازمة للموهبة امتلاكاً متميِّزاً وقويَّاً؛ فالذي يريد أَن يجدِّد في قواعد اللغة أَو يُغيِّر فيها ينبغي أَن يكون قد هضمها واستوعبها وامتلكها واطَّلع على تجديدات غيره لا أَن يكون فاشلاً أَصلاً، عَجِزَ من كسله عن حفظ قواعد اللغة فأَراد أَن يكسر قيودها ليرتع بها كيفما شاء. ومثل ذلك يقال في الفنون والأَخلاق والآداب والعلوم.

أَثبت أَنَّ تجديدك نابعٌ من عجز القديم عن استيعابك نُحني لك الهامات احتراماً، أَمَّا إن كان تجديدك بسبب عجزك عن استيعاب القديم فهيء نفسك لاحتقار الأَجيال.

اللعب على الهامش[1]

في إطار المعركة المهاترة بين عصفور وحمودة

١ . يمثل هذا الفصل القسم الأول من مداخلتنا في معركة المرايا المحدبة بين جابر عصفور وعبد العزيز حمودة، التي بدأت على صفحات جريدة أخبار الأدب الأسبوعية. وقد أعلن عن نشرها في إطار المعركة، ولكنَّ شيئا ما قد حدث أجل نشرها أو منعه. ويمثل هذا الكلام علقت مجلة **المجلة** في عددها (٩٩٩) عن توقف نشر مداخلات المعركة. وعلى الرغم من بعد هذا القسم في إطاره العام عن موضوع كتابنا إلا أننا آثرنا إدراجه في هذا الكتاب لانطوائه على كثير مما يهمنا في موضوعنا.

عار علينا أن ندخل القرن الحادي والعشرين دخولاً خِفًّا هزيلاً وكلّ قضايانا المهمّة والمصيريَّة غير محسومة. وهل يمكن أن تحسم في سنة واحدة ؟؟!! إذا كنّا أمّةً جديرة بالحياة يمكننا أن نفعل ذلك، وأكثر منه.

فيليون الزّيف على الواقع العربي؛ الثّقافي والفكري، وحرموه من مقوّمات الخلق والفعل والتّأثير، وجرّدوا المثقفين من أسلحتهم رويداً رويداً... فانعدم الحوار وتقوقعت الجديّة وانكفأت الصّراحة وماتت الجرأة.!!!

تابعت، كما كثيرون غيري على امتداد الوطن العربي، بمزيد من الاهتمام المعركة/ المهاترة، الموسومة بالنّقديّة بين المفكّرين الكبيرين؛ **د.جابر عصفور** و**د. عبد العزيز حمودّة**، على صفحات طائفة أعدادٍ من مجلة **أخبار الأدب**. والأسباب الدّاعية والموجبة لهذه المتابعة غير قليلة العدد ولا الأهميّة، ولذلك حريٌّ بنا قبل الولوج إلى صلب هذه المعركة المهاترة المناظرة أن نقف عند بعض أهمّ هذه الأسباب، ولا سيّما أنّها لا تقلُّ أهمّيّةً أبداً عن أهمّيّة مادّة المعركة. ولكنّنا سنجمل مداخلتنا في هذه المعركة مع أسباب الأهميّة في جملة من النّقاط نأمل أن تضيف ولو شيئاً مفيداً.

١.أرضية المعركة.

سحابة ربع قرن من عمر الأمّة العربيّة، تزيد ولا تنقص، قد مرّت عليها مرور الضّيف اللئيم؛ زيارته كبير خسارة ومغادرته شديد إساءة. نعم! سنون ربع القرن الأخير مرّت تباعاً، الواحدة تلو الأخرى؛ الشُّحُّ يزداد شظفاً، والعقم يتفاقم عضالاً، ففي كلّ سنةٍ تمرُّ نزداد بعداً عن المناخ السّويّ الضّروري لمختلف مناحي الحياة وأصعدتها ومستوياتها: الفكريّة والعلميّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسية والاقتصاديّة ... وليس في هذا أيُّ ضرب

من ضروب التَّشاؤم أو التَّفاؤل، إنَّه تصوير واقعٍ مُعاش قد لا يختلف ربَّا قلمٍ أو رأي فيه. ونحن إذ نقول ذلك فإنَّنا لا ننكر أبداً أنَّ ثمَّة تقدماً قد حصل، وأنَّ تطوُّراً في المعطيات قد تمَّ، ولكن شتَّان شتَّان بين ما حصل وتمَّ وبين الواجب والمرجو والممكن تحقيقه. إنَّ ما تحقق بالسَّعي وبالعوامل القسريَّة؛ الخارجيَّة والدَّاخليَّة، لا يوازي أبداً واحداً من آلاف مما يمكننا إنجازه لا مما نصبو. ولذلك نخطئ تماماً إذا قلنا إنَّ أمثال هذه المعركة النَّقديَّة أهمَّ ضحايا ربع القرن المنصرم هذا، ونخطئ كذلك إذا ظننا أن أيًّا من الحريَّة أو الدِّيمقراطيَّة أو العدالة أو سيادة القانون أو الكرامة ... هي أهمَّ هذه الضَّحايا، إنَّها كلٌّ متكامل يتعذَّر، بل يمتنع من النَّاحية المنطقيَّة، لا الواقعيَّة، وجود واحدٍ منها وجوداً حقيقيًّا بمنعزلٍ عن وجود غيره من هذه المفاهيم، لأنَّ أيَّ تعيُّن لأيِّ واحدٍ منها يتطلَّب تعيُّنا ملازماً ومماثلاً لهذه المفاهيم الأخرى، وبمعنى آخر: إنَّ الممارسة العمليَّة للحريَّة مثلاً تفترض مقدَّماً وجود المناخ الديمقراطي الذي يكفل تحقُّقها... وكذلك أمر تحقيق العدالة فإنَّه مرتبط بسيادة القانون، وسيادة القانون وشيجة الآصرة بالدِّيمقراطيَّة، والدِّيمقراطيَّة من ألمع أثواب الحريَّة ... وهلمَّ جرًّا في هذه السلسلة المتشابكة المتداخلة.

ومن ثمَّ فإنَّ غياب أمثال هذه المعركة النَّقديَّة عن السَّاحة العربيَّة إنَّما هو أمرٌ طبيعيٌّ، ولكنَّه ظاهرة غير سويَّة، بمعنى أنَّه من المتعذَّر، بل من الممتنع منطقيًّا أيضاً، أن توجد الظَّاهرة من دون وجود مقوِّماتها، وأهمُّ هذه المقوِّمات فسحة الحوار، وأين نحن من الحوار وكلٌّ منَّا، ولا سيَّما المهيمنون

على الوسائل الإعلاميَّة، ينكفئُ على عقائديَّته ويتشرنق بها، مصادراً على حقِّ الآخرين في التَّفكير أو التَّعبير، غير فاسح أيَّ كوة لأيِّ ضرب من المناقشة أو المناظرة فيما يراه، اللهمَّ إلاَّ في تمجيده والثَّناء عليه.

إنَّ أخطر إثمٍ، بل جريمة ارتكبها مفكِّرونا على مختلف انتماءاتهم هي تقوقعهم ضمن شرانق أفكارهم وتقديسهم لها إلى الحدِّ الذي جعلهم ينسحبون من ميدان تفعيل الجماهير والسُّلطات وتخليقهما من ناحيةٍ أولى، ويصادرون من ناحيةٍ ثانية على حقوق الغير في التفكير. والمشكلة المعضلة أنَّهم في الحالين كليهما يتوهَّمون من خلال عقليَّاتهم التَّسويغيَّة أنَّهم أرباب الموضوعيَّة واحترام الآخر وحريَّة الرَّأي والتَّعبير ... وأنَّهم لم ينسحبوا من السَّاحة وإنَّما راهنيَّة الواقع والحرص على الحقيقة والضُّغوط السِّياسيَّة اقتضت منهم ممارسة التَّقية والتَّستُّر واللف والدَّوران والموارية.

هذا كلُّه أدَّى إلى فتح الأبواب مشرعة للأقزام والطُّفيليين والمتسلقين للتَّعملق على أكتاف الكبار وعلى حسابهم. وهؤلاء الطُّفيليون بدورهم، غير مشكورين، فرضوا الزِّيف على الواقع العربي؛ الثَّقافي والفكري، وحرموه من مقوِّمات الخلق والفعل والتَّأثير، وجرَّدوا المثقفين من أسلحتهم رويداً رويداً... فانعدم الحوار وتقوقعت الجديَّة وانكفأت الصَّراحة وماتت الجرأة.

٢ ـ المعركة بحدِّ ذاتها.

في ظلِّ هذه الظُّروف المأساويَّة للواقع العربي يُفجِّرُ الدُّكتور **عصفور** قنبلة متشظيَّة قُدِّرَ لها أن تكون بداية معركة حقيقيَّة من المكاشفة والطرح

المباشر والاتِّهام الصَّريح ... إذ إنَّها فرضت على الدُّكتور **حمودة** الرَّدَّ، وقُدِّر لهذا الرَّدِّ أن يرى النُّور بفضل مجلة أخبار الأدب.

أقول ذلك لأنَّ كثيراً من أمثال قنابل د. **عصفور** تتفجَّر فوق ساحاتنا الثَّقافيَّة والإعلاميَّة من دون أن يظهر أيُّ ردٍّ للمطعونين أو المطعون في نزاهاتهم وقدراتهم ... قد يحسب الكثيرون الذين انتظروا الرُّدود أنَّ المطعون في قدراتهم وملكاتهم ونزاهاتهم إنَّما هم فعلاً يستحقون الطَّعن. ولكن الحقيقة خلاف ذلك تماماً، لأنَّ المطعون بشرفه وأمانته وقدرته، على النَّحو الذي أفاض فيه د. **عصفور**، لا يمكن أن يسكت أبداً، حتَّى ولو كان على خطأ، اللهمَّ إلاَّ إذا كان الخطأ يركبه من أساسه إلى راسه. والأمر في حقيقته أنَّ مؤامرة الصَّمت التي تحدَّث عنها د. **حمودة** أمر واقع على الرُّغم من أنِّي ظللت أرفض هذا الموقف بعناد شديد، وما زلت أرفضه لا لأنَّه غير واقعي بل لأنِّي أرى في الجبن واليأس والانهزامية ما أشدَّ فعلاً من سطوة المهيمنين على وسائل الإعلام الذين يمارسون مؤامرة الصَّمت، هذا على الرُّغم من أنِّي تعرضت لهذا الموقف منذ نحو خمس سنوات عندما صدرت الطَّبعة الأولى من كتابي «انهيار دعاوى الحداثة». ولعلِّي سأضطر للحديث عن ذلك بعد قليل.

المهمُّ هنا أنَّ المعركة بحدِّ ذاتها وحدوثها أمران على درجة من الأهمِّيَّة لا يمكن إغفالها أبداً، ذلك أنَّها معركةٌ نقديَّة حقيقيَّةٌ افتقرنا إليها ردحاً طويلاً من الزَّمن حتَّى صرنا غرباء عن عوالم الفكر والأدب الثَّقافة؛ تصطلينا نيران

الواحديَّة، وتستلبنا القوالب الجامدة، حتَّى كدنا ننسى شيئاً اسمه الحوار أو المناظرة ... نعم، التَّنوُّع موجود، ولكنَّ الرَّأي الآخر مفقود، بل مغيَّب ومرفوض. وهذا ما أدَّى إلى استشراء تصلُّب الآراء والعقائد وتحجرهما، وكان التَّعصُّب الأعمى هو النَّتيجة المنطقيَّة لهذا الوضع. ولذلك كانت المعركة النَّقديَّة بين **عصفور وحمودة**، التي وسمناها بالمعركة المهاترة، شبه استثناء، وكأنَّها نبتٌ أخضر في أرضٍ قاحلة، وأرضنا في جوهرها خصبة مريعة.

نحن لسنا متعطِّشين للمعارك النَّقديَّة حبًّا بالمهاترات والتَّحقير والشَّتائم وقلَّة اللباقة ... بل لأنَّ المعارك النَّقديَّة ظاهرة سويَّة تنمُّ عن مجتمعٍ سوي، ومسار سليم، لأنَّ هذه المعارك هي التي تقدح الأذهان، وتفتِّق القرائح، وتكشف الأخطاء والمثالب والعثرات ... غير أنَّ هذا لا يعني أنَّ معركة **عصفور وحمودة** قد فتحت أبواب المجتمع السَّوي على مصراعيه، ولا أنَّ هذه المعركة قد وضعتنا في قلب عصر جديد، فوجود زهرة لا يعني وجود الرَّبيع، وإمطار غيمة في الصَّيف ليس يعني حلول الشِّتاء ...

ولكنَّنا، على كلِّ حال، لا نستطيع إلاَّ القول: إنَّ هذه المعركة قد أثارت كوامن حزننا، واستفزَّت مشاعرنا إحياء هذه الظَّاهرة، وملأت قلوبنا أملاً بأن تكون مفتاحاً لمعارك نقديَّة حقيقيَّة أخرى تجعلنا نضع أقدامنا على أعتاب القرن الحادي والعشرين ونحن نعرف من نحن ! وماذا نريد ! وماذا يُراد منا ! وماذا يُراد لنا ! بل يجب أن يستنفر المفكِّرون العرب، بل كل المبدعين، لبسط بضائعهم وبضائع الآخرين تحت مباضع البحث والمناقشة

والحوار بمكاشفة حقيقيَّة ومطارحات جريئة، لأنَّه عار علينا أن ندخل القرن الحادي والعشرين دخولاً غثًّا هزيلاً وكل قضايانا المهمَّة والمصيريَّة غير محسومة. وهل يمكن أن تحسم في سنة واحدة ؟؟!! **إذا كنَّا أمَّةً جديرة بالحياة يمكننا أن نفعل ذلك، وأكثر منه.**

٣ ـ المهاترة والبحث العلمي.

أمَّا المهاترة والتَّقريع والتَّجريح والشَّتائمُ ... فإنَّها مسألة جدُّ مهمة، وتستحقُّ وقفة تأمُّل ونظر. ترى ما موقع ذلك كله (المهاترة والتَّجريح ...) من المنهج العلمي أوَّلاً، ومن مصداقيَّة المعرفة العلميَّة وصوابيَّتها ثانياً ؟!!

لا شكَّ أبداً في عدم وجود أيِّ صلة بين ماصدقات هذه المفاهيم والمنهج العلمي. ولا أظنُّ ولا أتخيَّل أنَّ أحداً يمكنه أن يحتجَّ علينا بأنَّ المهاترة أو الشَّتيمة ... هي إحدى خطوات منهج البحث أو أنَّها طريقه من طرائقه. ولكنِّي لا أنفي أنَّها يمكن أن توصل بالعَرَضِ إلى معرفة.

وليس تأسيساً على ذلك، ولا بالاعتماد عليه، لا يجوز إلاَّ القول بأنَّه لا توجد أي علاقة رياضيَّة أو منطقيَّة أو علميَّة بين درجة حرارة المهاترة ومصداقيَّة المعرفة النَّاجمة أو المسببة لها. والأمر عينه يقال في التَّجريح والشَّتيمة ... ولو كان الأمر كذلك، أي لو كان ثمَّة صلة قائمة، لوقعنا في ورطة حقيقيَّة، إذ سيكون أفهم النَّاس وأعلمهم هو الأقدر على السَّب والمهاترة ... ولا أظنُّ إلاَّ أنَّ كثيرين سيستغلُّون ذلك ويفتحون مدارس لتعليم فنون السَّبِّ والشَّتم والإساءة والتَّجريح والمهاترة ... وربَّما تضطر

الدَّولة إلى التَّركيز على هذه الفنون، في مدارسها الرَّسميَّة، بوصفها معايير المعرفة وخطوات في المناهج الموصلة إليها.

ولكن لماذا يلجأ مفكِّرٌ رصين أو يبدو رصيناً إلى مثل هذه الفنون غير المنهجيَّة ؟! إنَّ لجوء عامَّة النَّاس إلى هذه الفنون أمر طبيعيٌّ ولا حاجة إلى الطَّعن فيه، لأنَّ لها وظيفة اجتماعيَّة وأخلاقيَّة ونفسيَّة لا يمكن تجاوزها. وللسَّب ذاته لا نقبل الطَّعن في لجوء المفكر أو المبدع إلى ذلك في الجلسات العاديَّة. ولكن السؤال الذي يفرض ذاته علينا هو: لماذا يتحول ذلك إلى وثائق يسجلها التَّاريخ ؟!

من المؤكَّد أنَّه لم يكن **جابر عصفور** أوَّل من لجأ إلى هذه الفنون غير المنهجيَّة للطَّعن في صحَّة معلومات الخصم ومصداقيتها فالمسلسل طويل وأعلامه كثيرون، ومن أمثال هؤلاء نجد: **الحطيئة وبشار بن برد وجرير والأخطل والفرزدق والمبرد وثعلب،** و على نحو قريب نجد مثل ذلك عند **الجاحظ،** وربَّما أمكننا إدراج **أبي فراس الحمداني** ضمن هذا المسلسل. وفي العالم الغربي نجد الموسيقيين **بتهوفن** أو **بيتهوفن وساليري،** والرَّسام **دونما،** والروائي **برنار دان دو سان بيير**. الأمر الذي يجعلنا أمام مشكلة حقيقيَّة تتمثل في سؤالنا الذي مازنا نلحُّ عليه، وهو: إذا لم تكن فنون المهاترة والإساءة من مصداقيَّة المعرفة أو المنهج العلمي في شيء، فلماذا يُلجأ إليها ؟

الحقُّ أنَّ لهذه الفنون، في هذا الإطار، وظيفة نفسيَّة وأخلاقيَّة بالدَّرجة الأولى، والحديث في كليهما يطول. وحسبنا من ذلك الإشارة إلى ما لا يجوز إغفاله، وعلى هذا الأساس نجد أنَّ وظيفة ممارسة هذه الفنون من النَّاحيتين الأخلاقيَّة والنَّفسيَّة؛ متلازمتين ومتفاصلتين، بالنِّسبة لمن يمارسها ولمن تمارس في حقِّه، إنَّما تكون للأسباب التَّالية أو لبعضها، وإن كنت أجد حرجاً في ترتيبها حسب الأولويَّة، ولذلك لا أعدُّ ترتيبي لها نهائيًّا، وإنَّما أترك كلِّ واحد حريَّة ترتيبها:

أولا: قد يكون مستخدم ما سمَّيناه فنون المهاترة والتَّجريح ... حاقداً أو حاسداً، وأنا أستبعد هذا الاحتمال سلفاً لأنَّ الحاقد أو الحاسد لا يلجأ إلى ذلك غالباً، بل يلجأ إلى أساليب خفيَّة تهدف إلى القضاء على الخصم بطرق ملتوية بعيدة عن المباشرة. وعلى افتراض أنَّ هذا أحد الأسباب فإن مثل هذا الشَّخص بحاجة إلى الشَّفقة والعلاج النَّفسي المناسب وإن صعبت جدوى العلاج.

ثانياً: قد يكون مستخدم هذه الفنون ناقماً على الخصم لأنَّة واجهه بحجة أو حجج لا يستطيع ردَّها، أو لأنَّه كشف عواره ونقاط ضعفه ونقصه للآخرين. فإذا كان هذا هو السَّبب فإنَّ النَّاقم قد أخطأ، لأنَّ من واجبه الشُّكر والعرفان بالجميل لمن أبان له عيبه وخطأه ونقاط ضعفه، كي يقوِّم موقفه ويدعمه، أو يعدل عنه إذا كان سائراً في طريق مسدود. وقد تكون النقمة منه لأنَّه أسيء إليه بما أخرجه عن طوره وفكَّ أربطة الوقار عن لسانه،

فإذا كان الأمر كذلك فالعين بالعين والسنُّ بالسنِّ « والبادئ أظلم »، ولا لوم عليه، ولكنِّي أظن فيما أظنُّ أنَّ ضبط النَّفس رجحان عقل وارتفاع مكانة وعزَّة نفس وقرب من الحقِّ.

ثالثاً: قد ذلك، لسبب أو لآخر، من أجل محض الإساءة والتجريح. والمبدع الحقُّ والأصيل، على ما أظنُّ، بل أعتقد، أسمى وأرفع بكثير من أن ينحطَّ إلى مستوى الرعاع والذَّحل. ولذلك لعلَّ هذا ليس سبباً من أسباب لجوء المبدعين إلى هذه الفنون الرَّدحيَّة.

رابعاً: قد يكون مستخدم هذه الفنون غير متمكِّن من علمه ومعرفته، أو أنَّه يجادل بغير حق وهو يعرف أنَّه على خطأ، ولذلك يتفنَّن في السَّب والشَّتم والتَّجريح ... إمَّا محاولة لإخفاء جهله، أو لإبعاد الشُّبهات عنه، أو لحرف النِّقاش عن مساره وتسليط الأذهان على ما هو بعيد عن جوهر المشكلة. فإذا كان هذا هو السَّبب فإنَّ اللاجئين إليه هم الخاسرون أخيراً، وهم الجانون على أنفسهم، فالغبي هو من يستغبي غيره، والتَّاريخ فضَّاحٌ لا يمالئ أحداً أبداً، ومن لم يصدق فليتابع صحيفة واحدة لمدَّة أسبوع فقط.

خامساً: قد يكون مغروراً إلى درجة خداع الشُّعور بالعظمة، وعذر مثل هذا أنَّه لا يرى ما سواه إلا ذباباً أو أسقاطاً ... ويرى أنَّه وحدة المحق والمصيب لأنَّه لا يوجد من هو أقدر منه أو أذكى. والتَّعامل مع هؤلاء ورطة، بل مصيبة حقيقيَّة، فمناقشتهم معضلة، وإقناعهم غير ممكن، وتغييرهم شبة استحالة. ولذلك ليس في وسعنا إلا أن نكرر قول الشَّاعر:

ملأى السَّنابل تنحني بتواضعٍ والشَّامخات رؤوسهن فوارغ

وكذلك قول الشَّاعر:

التِّيه مفسدةٌ للدِّين، منقصةٌ للعقل، مهتكةٌ للعِرضِ، فانتبهِ

ولكنِّي أتوقع أن يُقابل هذان البيتان بضحكة بل بقهقهة هستيريَّة ساخرة ترى أنَّ الضَّعف وقلَّة الحيلة هما الدَّافع للتخفي وراء هذا الوعظ.

سادساً: قد يكون المتفنِّن في المهاترة وحواشيها بذيء اللسان في طبعه، وبذاءة اللسان خُلُقٌ، والخلق طبعٌ، وتغيير الطَّبع صعبٌ، ومن كان هذا طبعه قد يكون غير ملوم عند من اعتاد عليه، ولكنَّه على الرُّغم من كلِّ ما قد يحتجُّ له به فإنَّه خلقٌ مذمومٌ، ويعود على صاحبه بسوء الذِّكر.

سابعاً: ولكن ألا يخطر في البال أن يكون من تمارس فيه هذه الفنون قد أسفَّ في القول، أو ارتكب أخطاء فادحة لا تجوز أو لا تحتمل، أو خاض فيما لا يحقُّ له الخوض فيه، أو سرق، أو شوَّه ... فاستحقَّ بذلك أن يُفضح ويُجرَّح ويُطعن في أخلاقه ؟؟

الحقُّ أنَّنا هنا أمام مشكلة حقيقيَّة، فمن النَّواحي؛ المنطقيَّة والنَّفسيَّة والأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة والمعرفيَّة والإيبستمولوجيَّة ... ومن كلِّ حدب وصوب، مع فضح هؤلاء وتجريحهم، ولكن شريطة تبيان المواضع التي استحقوا عليها ذلك بالحجة والدليل. والإشكال هنا ذو وجهين:

أوَّلهما: هو أنَّ كلَّ صاحب موقف أو اعتقاد أو عقائديَّة أو مبدأ ... يعدُّ نفسه وصيًّا على الحقيقة، وأتَّه وحده المالك لها. ومن ثمَّ فإنَّ كلَّ

من يخالفه الاعتقاد خاطئ بالضَّرورة، وبالضَّرورة أيضًا يستحقُّ التَّعنيف والتَّقريع والتَّجريح ... وإذا ما أقررنا بذلك وجب أن نقرَّ أيضاً بضرورة أن يتدرب المفكرون على ممارسة سائر هذه الفنون والبراعة فيها قبل تلقي أي معرفة... وربَّما استدعى الأمر التَّدرب على استخدام العصي والهراوة وضرب الحجارة.

ثانيهما: أنَّ فضح المرء بالكشف عن سرقاته وجوانب جهله وخوضه فيما لا يفقهه ... أشدُّ وطأً من السبِّ والشَّتم الخالي من النَّقد العلمي، أيَّ إنَّ ممارسة فنون المهاترة والتَّفنن في موشَّحاتها أمر لا داعي له أيضاً من أجل التَّقريع على من يسيء إلى نفسه بارتكاب حماقات لا يحقُّ (للمبدعين والمفكِّرين) ارتكابها. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنَّ المبدع الأصيل والمفكر الحق لا يمكن أن يرتكبا مثل هذه الحماقات.

٤ـ مهاترة عصفور.

لن أصنِّف مهاترة د. **عصفور** وأساليب تجريحه ضمن أيِّ صنف من الأسباب سالفة الذكر، ولن يكون هذا غرضنا، ولن أحصي عليه شيئاً من ذلك لأنَّ الإحصاء ليس من اختصاصي ولأنِّي لا أرمي إلى ذلك.

يبدو من خلال هذه المقدمة الصَّغيرة أنَّني أتحامل على الدُّكتور **عصفور**، وهذا مخالف للحقيقة تماماً، فأنا أزعم ما يزعمه كلُّ النَّاس وهو الوقوف مع الحق، وأبين ذلك فيما يلي:

عندما وصلني كتاب الدُّكتور **عبد العزيز حمودة** ألقيت عليه تصفحيَّة سريعة من العنوان إلى المسرد فكانت أول صدمة أتلقاها هي المفارقة بين العنوان: (المرايا المحدَّبة؛ من البنيويَّة إلى التَّفكيك) وعناوين الفصول: (الحداثة... الحداثة... البنيويَّة... التَّفكيك)، إذ المفترض، من خلال العنوان، أن ينصب الكتاب على البنيويَّة والتَّفكيكيَّة وما بينهما من صلة. أمَّا الصَّدمة الثَّانية فكانت عندما اطلعت على سيرة المؤلف المختصِّ بالأدب الإنجليزي وترجمته وتساءلت باستغراب: ما علاقة هذا الرَّجل بالفلسفة حتى يخوض غمارها ؟! (ولسنا بحاجة إلى تأكيد أن البنيوية والتَّفكيكيَّة، على انغماسهما حتى الأذنين في أمواه اللغة، جزءان من الفلسفة). وعلى الرُّغم من اهتمامي بموضوع الحداثة فقد قررت الإقلاع عن قراءة الكتاب لشعور انتابني بأني سأصطدم بكثير من الخلط والبعد عن دقة الاصطلاح وعن العمق الفلسفي ...

ولكنَّ الفضول استبدَّ بي. بأي حقٍّ أو صفة نصادر على حق الآخرين في التَّفكير والتَّعبير، حتَّى ولو لم يكن ذلك من صلب اختصاصهم، إن مهمتنا تنحصر في النَّظر في نتاجه، ونتاجه هو الذي يخولنا حقَّ محاسبته، فإمَّا أن يفرض علينا احترامه وتقدير جهده، أو أن يفرض علينا أن نقرِّعه ونجرِّحه ونزدريه. فعدت إلى عناوين الفصول. عدت إلى سيرة المؤلف، وأعتذر منه على أني لم أكن أعرفه بما يكفي: الرَّجل كبير، سيرته لا تبتعد كثيراً عن سيرة أي أستاذ جامعي قضى نحو نصف عمرة في مهنته، فهل

يجوز لمثله أن ينزلق في مثل هذه المفارقة دون تحسب ... وبعد قليل تردد اندفعت في قراءة الكتاب، ولم أعر غيره انتباهاً حتَّى فرغت منه، وهذه أول إشارة على إعجابي بالكتاب. ولكن على الرُّغم من ذلك فقد سجلت بعض الملاحظات على صفحات الكتاب ذكر معظمها الدكتور **عصفور**، وأضيف إليها النقاط الأربع التَّالية:

أولاً: غياب اللمسة الفلسفيَّة الاختصاصية، وليس التَّبسيط أو التَّعقيد الذي أشار إليه الدُّكتور **حمودة** في المقدمة هو المقصود لأنَّ العرض الواضح كناية عن الفهم الواضح وهذه نقطة له لا عليه، وهذه مشكلة الموضوع الذي حكم نفسه فيه بمحاور محددة هي المتعلقة بمشكلة الحداثة.

ثانياً: إصراري على عدم التَّوافق بين العنوان والمضمون، فلو اقتصر العنوان على المرايا المحدبة لخرج من عدم التوافق، ولو جعل العنوان الرَّديف مفردات الفصول الثلاثة لخرج من ذلك أيضاً.

ثالثاً: البنيوية ليست جزءاً صميميّا من حركة الحداثة المذهب . Modernism ولا امتداداً رئيساً لها، ومن ثم فإن الحكم في الحداثة ليس حكماً في البنيويَّة، والحكم في البنيويَّة ليس حكماً في الحداثة، أمَّا صلتها بالحداثة النزعة . Modernity فهي صميميَّة، وليست البنيويَّة وحدها بل كلُّ محاولة للتغاير مع ما هو واقع، مهما كانت هذه المغايرة، ذات صلة صميميَّة مع هذه الحداثة، وكلام الدُّكتور **حمودة** ينصب على الحداثة المذهب.

رابعاً: أمَّا التَّفكيكيّة، وإن بدت بوصفها الوجه المقابل للبنيوية، فإنَّها الأقرب إلى الحداثة المذهب، ويمكن أن تشكل امتداداً حقيقيًّا لها. أقول يمكن لأني لن أعارض كثيراً من يوهن الصلة بين الحداثة المذهب والتَّفكيكيَّة، فليس ثمَّة مشكلة كبيرة في ذلك، فبإمكاننا أن ندرس التَّفكيكيَّة انطلاقاً من مبادئها هي وكأنَّها لا صلة لها بالحداثة المذهب ونحاسبها على ذلك؛ نقبل ما نشاء ونرفض ما نشاء. على أني من حقي الاحتفاظ بقناعتي في وشيج الصلة بينهما. وخطأ **حمودة** هنا هو أنَّه تعامل مع البنيويَّة والتَّفكيكيَّة بوصفهما جزءاً محورياً من حركة الحداثة المذهب، وامتداداً حقيقيًّا لها.

ولكن ذلك كلَّه لا يقلل من قيمة القضايا المطروحة في الكتاب، ولا من قيمة المنهج، ولا المناقشة، ولا الحقائق التي بسطها، ولا الاستنتاجات... ليس لأنِّي أتفق معه في كثير منها بل لأنَّها حقائق تفرض ذاتها على أيِّ قارئ موضوعيٍّ.

فماذا فعل الدكتور **عصفور** ؟

في البداية الأولى لا بدَّ من القول إنِّي أكنُّ الاحترام للدكتور **عصفور** على الرُّغم من كثير من عدم التَّوافق أو التَّآلف معه، وإنَّما استحق الاحترام بوصفه علماً من أعلام النَّقد العربي المعاصر أولاً، وبوصفه صاحب رؤية إن لم أقبلها فلا يحقُّ لي أن أصادر على حق صاحبها ثانياً. وفي البداية الثانية لا بدَّ من القول أيضاً أنَّ الدكتور **عصفور** قد أصرَّ بعناد غريب على تمزيق

حجب الاحترام من خلال أسلوب نقده الاستفزازي لكتاب **حمودة** في الحوار الذي أجري معه، فهو مفعمٌ بالإساءة والتَّجريح، خال من أي نقد علمي. وعندما تابعت حلقاته الثَّلاث عن الكتاب وصاحبه أدخلني في ليلين؛ حقده والهوى.

على الرُّغم من ارتياحي للكتاب فإنِّي استبشرت خيراً في بعض انتقادات **عصفور**، بل في معظمها، فأنا أحبُّ كثيراً فضح السَّارقين والمسفين والمخطئين ... لأنَّ المراعاة والمجاملة ... تكرس الخطأ والفساد، وهذا ما هو واقع للأسف. ولكنِّ بعدما فرغت مما كتبه وجدتني أتفق معه في نقطتين؛ شكليَّة وجوهريَّة، أتوجَّه معه بمها باللوم إلى الدكتور **حمودة**، وهما:

أوَّلاً: النقطة الشَّكليَّة هي ركاكة بعض الترجمات وأخطاؤها.

ثانياً: الأخذ عن الغير مع النسب إلى المصدر الأصلي دون الإشارة إلى الوسيط.

أمَّا النقطة الأولى فقد وسمناها بالشَّكليَّة، على أهميتها وخطورتها من الناحية العلميَّة، لأنَّها قدرٌ لا مفرَّ منه، فما من ناقل عن لغة أخرى إلا وهو معرَّضٌ لمثل هذا الزلل لا السَّقطة، وكان ينبغي على **عصفور** أن يسأل نفسه قبل ذلك: ألا يحتمل أن يكون قد وقع هو ذاته في مثل هذا الزلل ؟! المشكلة المعضلة أنَّه يعلم ذلك تمام العلم وأصرَّ على أن يعرض نفسه لتهكم **حمودة** وسخريته، ومعه كلُّ من تابع المعركة. ولو لم يفعل ذلك صاحب المرايا لفعله كثيرون غيره. لأنَّ الحقيقة لا تخفى. ولكن، أن تكون هذه

المسألة شكليَّة، لا يعني عدم لوم المخطئ وتنبيهه أو محاسبته، وكلما زادت الأخطاء قلَّت الكفاية والتمكن والدراية، وكلما قلَّ التَّمكن كان ذلك أدعى إلى المحاسبة والردع. ومن الباب ذاته، باب «عجبت ممن يرى القذى في عين أخيه ولا يرى العود المعترض حدقه»، فقد أكثر كلاهما من التركيز على الأخطاء اللغويَّة للآخر وكأنَّه لا يخطئ، فيما لم يخل ما كتبه كلاهما في هذه المعركة من عدد غير قليل من الأخطاء.

أمَّا النقطة الثَّانية فقد وسمناها بالجوهريَّة لأنَّها تتعلق بالأمانة ولا مراء في الأمانة أبداً، وهذا ما سكت عنه **حمودة** غير معذور، فقوله: المهم القضايا لا المصدر غير مقبول، ولا يمكن أن يقبل منه غير الاعتذار عن ذلك. والمشكلة التي أودُّ إثارتها هنا هي أنَّه لا عيب أبداً في عدم الرُّجوع إلى المصادر، ولا مانع في الأخذ عن الآخرين ما ترجموه أو نقلوه عن المصادر، ولكن شريطة أن ينسب المقبوس إلى المكان المأخوذ منه تحديداً بصورة أو بأخرى، ولذلك نحن لا نلوم **حمودة** من حيث المبدأ على اعتماده على كتاب **فنسنت ليتش** لاقتباس نصوص **لهيدحر**، ولكننا نلومه على نسبها إلى **هيدجر** مباشرة من دون الإشارة إلى أنَّه أخذها عن **ليتش**.

ولكنَّ المزلق الأكبر الذي وقع فيه **عصفور** هو أنَّه بدا في كلِّ نقده أنَّه يعبر عن حقده على **حمودة** لا عن نقد علمي أصيل، وما أكثر ما بان ذلك في ممارسته الأستاذيَّة بأساليب مختلفة، واستخدامه مفردات كان ينبغي أن يترفع عنها، لأنَّها أساءت له أكثر مما خدمته، وكان حريًّا به أن يتناول

قضايا المرايا المحوريَّة ويدحضها أو يناقش أخطاءها طالما أنَّه يرفضها، وأعيد القول إنِّي لن أحصي عليه عدد ما أساء إلى نفسه لأنَّ هذا أمر يهمه أكثر مني أولاً، ولأني الإحصاء ليس اختصاصي ثانياً. ولكن لا بدَّ أن أذكِّر هنا الدكتور **عصفور** الذي ثقب غشاء طبلة أذن الدكتور **حمودة** بتكراره قوله: لو طلب مني الكتاب، ولو سألني عن هذا الموضوع ... أذكِّره أو أخبره بأني علمت منذ سنوات بوجود بعض الدِّراسات التي تهمني في بعض أعداد مجلة فصول، فأرسلت له حينها أربع رسائل أرجوه، ويزداد الرَّجاء في اللاحق على السَّابق، أن يدلني على كيفيَّة الحصول على هذه الأعداد، مع استعدادي لكل التَّكاليف مهما بلغت قبل إرسالها أو بعده. ولكني، مع وصول كلِّ رسائلي الأخرى إلى مصر ومع توجيه رسائلي إليه شخصيًّا، أحسنت الظَّنَّ به وقلت في نفسي: لعلَّ الرَّسائل لم تصله.

طال بنا الكلام، مع العذر، ولم نأت إلى الأهمِّ في الموضوع، وهو حقيقة الحداثة والحداثيين، وفكرة المؤامرة، وهيمنة الحداثيين الإعلاميَّة ...نأمل أن تتاح لنا في العدد القادم مساحة أخرى لهذه القضايا.

الحداثة بين العقلانيّة واللاعقلانيّة[٢]

٢ ـ يمثل هذا الفصل القسم الثّاني من مداخلتنا في معركة المرايا المحدبة بين جابر عصفور وعبد العزيز حمودة، التي بدأت على صفحات جريدة أخبار الأدب الأسبوعية. وعنوانه في الأصل: الحداثة بين الوهم واللاعقلانية. وهو الجزء الأساس الذي كنا نعزم على كتابته لاستكمال هذا الكتاب في طبعته الثانية بغض النّظر عن معركة المرايا.

إنَّ أخطر معضلةٍ تعترضنا في مشكلة الحداثة هي لعب الحداثيين على حبال ازدواجيَّة الدَّلالةِ لهذا الاصطلاح ، حتَّى أوشكنَّ تضيع الحقيقة، ويختلط الأمر على كثير من المثقفين أنفسهم، بل هذا ما لا شكَّ في وقوعه.[1]

١

ثيون حداثتهم على أنَّها مشكلة مستعصية على الحل والدَّحض، وصعبة عسيرة الهضم والفهم. ولذلك فإنَّ كلَّ من يرفضها أو لا يقف معها ليس إلاَّ متخلِّفاً وجاهلاً ورجعيًّا، لا يحقُّ له أن يكتب ولا أن يتكلَّم ولا أن يقرأ ...

من أهمِّ الأسباب التي شدَّت انتباه المثقفين، على امتداد الوطن العربي، إلى المعركة النَّقديَّة بين عصفور وحمودة هي الأهمِّيَّة القصوى لموضوع المعركة بحدِّ ذاته. هذا الموضوع الذي لم يقترب منه الاثنان إلاَّ أقلَّ القليل الذي لا يغني ولا يسمن من جوع. وكأنَّ الموضوع أصبح هامشاً، والهامش أصبح متناً. وهذا ما دعانا في حقيقة الأمر إلى عنونة مداخلتنا بـ «اللعب على الهامش». فأرجو ألاَّ أكون قد لعبت على الهامش في القسم الأوَّل، وسأسعى ألاَّ أغادر المتن في هذا القسم.

لا أظنُّ أنَّ الضَّرورة تلحفُ علينا للإشارة إلى أنَّ الموضوع الذي أشعل فتيل قنبلة المعركة هو الحداثة. ولكن بوسعنا أن نتساءل: لماذا تحتل مشكلة الحداثة هذه الرُّتبة من الأهمِّيَّة في عالمنا العربي ؟ ومن البداهة بمكان أنَّه لا بدَّ لنا أن نبحث قبل ذلك في: حقيقة الحداثة، ومن ثمَّ الحداثيين، وماذا يريد الحداثيون ؟؟

إنَّ أخطر معضلةٍ تعترضنا في مشكلة الحداثة هي لعب الحداثيين على حبال ازدواجيَّة الدَّلالة لهذا الاصطلاح / المفهوم، حتَّى أوشكت تضيع

الحقيقة، ويختلط الأمر على كثير من المثقفين أنفسهم، بل هذا ما لا شكَّ في وقوعه، إذ بات، في حكم هؤلاء، كلُّ من يناصب الحداثة العداء، أو يحاربها، أو ينتقدها، من المغضوب عليهم، ومن الضَّالين، والرَّجعيين، والمتخلفين، والمتقوقعين ... لأنَّه يناهض حركة التَّاريخ، ويعارض سنَّة الحياة في التَّطور والتقدم. ولذلك اندفع كثيرٌ من المغفَّلين من المؤمنين بالواقع أو التُّراث أو الدِّين إلى اللهوجة والارتجال لإثبات التَّوافق أو عدم التَّعارض بين الدِّين والحداثة، أو بين التُّراث والحداثة.

هذا في حقيقة الأمر محض خلطٍ وزيف اعتقاد أولده الوقوع في فخاخ المغالطة الكبرى التي قادهم إليها فريقان: أولهما ادَّعى الانتساب إلى الحداثة سهواً أو (حسن ظنٍّ) بهذا الاصطلاح الجذاب؛ بعضهم ظلَّ عند سهوه أو حسن ظنَّه ما تعداه، وبعضهم أدرك سهوه أو خطأ ظنِّه، وكلاهما؛ جهلاً أو مداراة جهل، راح يلعب على حبال ازدواجيَّة الحداثة مما بين نزوع/ نزعة . Modernity ومذهب . Modernism . أمَّا الفريق الثَّاني فقد كان حداثيًّا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، أي بالمعنى المذهبي، لأنَّ الأوَّل مفهوم وليس اصطلاحاً، ونظراً لأنَّ الحداثة بمعنى المذهب قد استُنكرت ورُفضت وحوربت فقد اضطر هذا الفريق إلى اللف والدَّوران والمواربة لتكبيل الخصوم بحبالهم المتشابكة ومن أجل الوصول إلى قلوب الجماهير ... ومن غير حرج أدَّعي أنَّ هذا اللعب على الحبال إنَّما هو فقط عند حداثيينا نحن العرب لا عند غيرنا. لأنَّ الفرق بين الاصطلاحين واضح في اللغات الأوربيَّة تكشف عنه لاحقتي الكلمتين: Modernity و Modernism .

وبذلك انطلت اللعبة على الكثيرين الذين وقعوا في هذه الفخاخ، ودرجت ا لمغالطة بينهم بوصفها حقيقة. فما الحقيقة ؟

ثمَّة مفاهيم واصطلاحات خاضعة لوجهات النَّظر والآراء والميول والأهواء ... وثمَّة غيرها لا تقبل مثل ذلك، على الأقل من ناحية ما تتمحور حوله من ثوابت ولا سيما الجوانب الوقائعيَّة التي لا مدخل فيها للآراء والرُّؤى الشَّخصيَّة. هذه حقيقة، ولكن على الرُّغم من كونها حقيقة فإنَّها مثار نقاش وجدال. ذلك أنَّ الرُّؤى والآراء والمواقف في المعطيات أو الأحداث تختلف باختلاف مواقع النَّاظرين إليها وغاياتهم، وهذه حقيقة مستعصية على الشَّك أو الطَّعن.

ولكن مما يستعصي على الشَّك والطَّعن أيضاً هو أنَّه عندما تكون الموضوعات مواضع الرُّؤى من البداهات أو المسلَّمات فإنَّ الاختلاف فيها أمرٌ مستنكرٌ؛ فما قول الأنام في الشَّمس سوى أنَّها الشَّمس لا قول فيها!! وأنا لا أريد زعم أنَّ ما أقوله هو الحقيقة وحدها ولا حقيقة بعدها، ولكنِّي أدَّعي بكلِّ جرأة أنَّني أنطلق من حقائق ووقائع تاريخيَّة عزيزة على الطَّعن.

إنَّ الحداثة الواجهة التي يتستر الحداثيون وراءها هي الحداثة النَّزعة أو النُّزوع الإنساني إلى التَّجديد والتغيير، وهي ما يقابلها في الإنجليزيَّة لفظ: Modernity، وهي ما كان يطلق عليه فيما سبق: المحدث أو المولد أو الجديد. وأفضل ما يطلق على هذه النَّزعة، من باب التَّمييز، هو التَّحديث لا الحداثة، والأثر هو المحدث. لأنَّ هذه النَّزعة أصيلة في الإنسان ولا يمكن

أن تحارب أو ترفض، على الرُّغم مما دار وقد يدور من خلاف في المحدثات، لأنَّ الحياة لا يمكن أن تستحقَّ معناها من دونها[٣].

أمَّا الحداثة المذهب ـ Modernism، أو الاصطلاح المتعارف عليه فهي حركة لصيقة النَّشأة بالفنِّ ثمَّ الأدب ثمَّ عموم الفكر، وأهمُّ ما تقوم عليه وبه هو قطع أي صلة مع الماضي وحتَّى الحاضر ذاته، بمعنى أنَّها تريد أن تبني، من فراغٍ ومن عدم، ما لا علاقة له بماضٍ أو حاضر أو واقع، وما ليس يشبه أيًّا من ذلك كلِّه. وبهذا المعنى تقريباً يعرُّف عبد الله أحمد المهنا الحداثة تعريفاً مفعماً باللباقة يرى فيه أنها:«ذلك الوعي الجديد بمتغيِّرات الحياة، والمستجدَّات الحضاريَّة، والانسلاخ من أغلال الماضي، والانعتاق من هيمنة الأسلاف»[٤]. وهذا ما يجد صداه عند حنا عبود، في كتابه الحداثة عبر التَّاريخ، بتعبير لا يقل لباقة إذ يرى «أنها دعوة إلى ممارسة التَّجارب؛ كلِّ التَّجارب والاتِّجاهات، والتَّعبير بكلِّ حرِّيَّة عن المطامع الآجلة والعاجلة عند الأديب، ومحاربة كلِّ أنواع القسر: الماديِّ والمعنويِّ» وذلك استناداً إلى الحقيقة التي يقرُّ بها قائلاً: «إذا كان لا بدَّ من تحديد أيديولوجيا عامة

٣ ـ وهنا لا بدَّ من إيضاح مسألة مهمَّة وهي أنَّ تعريب الاصطلاحات التي تنتهي باللاحقة (**ISM**) يعامل معاملة التَّمذهب فيأخذ واوها، أي نقول حداثوي وحداثويَّة وهذه أفضل ترجمة لهذا الاصطلاح بما هو أيديولوجيا التحديث، وليبق الاصطلاح الأول دالاً على الحداثة، ولكن الذي جرى في عالمنا العربي هو شيوع لفظ الحداثة بوصفه مقابلاً لـ **Modernism**، ولذلك وجب إبقاء الشَّائع على ما هو عليه، أو تعميم التعريب الدقيق للاصطلاحين والسير عليهما.

٤ ـ عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربيَّة المعاصرة ـ ضمن مجلة؛ عالم الفكر ـ المجلس الوطني للثَّقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ المجلد ١٩ ـ العدد ٣ ـ ص٦.

للأدب الحديث، فإنَّنا لا نجد غير الفوضويَّة أو (العدميَّة) مرشداً أيديولوجيًّا. والفوضويَّة دعوة إلى الحريَّة، إلى التجاوز، إلى تحطيم كل قانون مهما كان، من أجل خلق حالة الحرية»[٥]. على من أنَّ الأخير قد جعل مضمون كتابه كلِّه دائراً في فلك التَّحديث لا الحداثة بالمعنى الاصطلاحي.

والحداثة بهذا المعنى اتِّجاهٌ لاعقلانيٌّ، وهذا ما أقرُّ به كلُّ أعلام هذه الحركة وأتباعها، إلاَّ العرب منهم. ولذلك تندر هاري ليفن على الحداثة بقول: «على الرغم من أن الأدب الحديث يفخر بجرأته، فإن ثمة عضواً واحداً من الجسم يبقى ذكره في الغالب محظوراً ألا وهو العقل»[٦].

وهنا أتساءل بإلحاح: كيف وبأيِّ حقٍّ يساوي الحداثيون بين قانون أو سنَّة من سنن الحياة والعقل البشري وبين أهواء فئةٍ؛ معدودة محدودة، تتناقض مع كلِّ سنن العقل والحياة وترفضها، ويرفضها السَّواد الأعظم من صفوة النَّاس والنَّاس ؟؟!!

لا شكَّ في أنَّ الحداثيين سيبتسمون ابتسامةً صفراويَّة، ممتزجةً بنشوة النَّصر، وهم يعترضون على تساؤلنا هذا وكأنَّهم أصابوا منَّا مقتلاً، بقولهم: إنَّ التَّاريخ مليءٌ بمثل معطيات الحداثة ومنجزاتها. ومن ثمَّ كيف استمرت الحداثة إذا كانت مرفوضة ؟؟!

لن أعدِّد الفرمانات الصَّادرة بحقِّ الحداثة في العالمين الغربي والشَّرقي، ولا الاستنكارات، ولا الشَّجب، ولا أسماء الرَّافضين لها ورجاحة عقولهم

٥ . حنا عبود: الحداثة عبر التَّاريخ. اتحاد الكتاب العرب. دمشق. ١٩٨٩م. ص ٢٦١.

٦ . عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربيَّة المعاصرة. ص٩.

ومكاناتهم الفكريَّة والعلميَّة، وحسبي أن أقدِّم إجابتي عن هذا التَّساؤل، وردِّي على هذا الاعتراض المحتمل من خلال المحاور التَّالية:

أوَّلاً: الحداثة أيديولوجيا لا أكثر

إنَّ قول الحداثيين بأنَّ الحداثة أيديولوجيا اللاأيديولوجيا قول موفَّقٌ إلى حدٍّ بعيد، ذلك أَنَّ كلَّ أيديولوجيا، وإن انطوت على جانب لاعقلاني، فإنَّها محاولة لعقلنة الواقع بامتداديه الزَّمانيين بما يتوافق معها. أمَّا الحداثة فهي محاولة لمسح بصمات العقل عن الواقع والفكر والفن، وقسرها علىٰ الالتحاف باللاعقلانيَّة. وهذا ما يقتضي منَّا بالضَّرورة التَّمييز بين طائفة من الاصطلاحات والمفاهيم وتوضيحها، وهي: المعقول والعقلاني، واللامعقول واللاعقلاني، والحداثة والمحدث، والحديث والجديد والمعاصر. ولكنَّنا سنقتصر على الحداثة والمحدث لعدم كفاية المساحة، ولعدم الخروج عن الموضوع.

إنَّ ترجمة الكلمة الإنجليزيَّة: Modernity إلى حداثة ترجمة خاطئة، وحقُّها أن تترجم إلى محدث مثلها مثل: Moral = أخلاق، و Morality = أخلاقي، وغيرها من طائفة المفردات هذه، على أنَّه ليس ثمَّة ما يمنع من تعريبها إلى حداثة، ولكن لفظة الحداثة اشتهرت وراجت في الشارع العربي على أَنَّها الأيديولوجيا المناهضة للعقل، والنُّزوع اللاعقلانيَّ في الفن والأدب. ولذلك لا يجوز أن نتحدَّث عن حداثة يونانيَّة أو حداثة إسلاميَّة أو الحداثة عند أي علم سابق على ظهور اصطلاح الحداثة . Modernism إلاَّ إذا كان

القصد هو وجود أفكار أو تطبيقات تتوافق مع مفاهيم هذه الحداثة. لأنَّ هذا الاصطلاح نوعيٌّ لا ينطبق إلا على أصحابه، مثله مثل الماركسيَّة والوجوديَّة والوضعيَّة المنطقيَّة ... إذ لا يمكننا أن نقول: ماركسيَّة أرسطو أو وجوديَّة الفارابي ... ولكنَّنا نقول: أفكار وجوديَّة عند سقراط، وأفكار ماركسيَّة عند أفلاطون ...

وإذا كان التَّحديث . التَّجديد أو الحداثة بمعنى النَّزعة قديماً قدم الإنسان، وأزماته تظهر بين الفينة والأخرى، ولا سيما في المراحل الانتقاليَّة، فإنَّ الحداثة . المذهب/ الأيديولوجيا قد ظهرت في مطالع هذا القرن الذي نستعد لمغادرته. ظهرت بوصفها أيديولوجيا مثل أي أيديولوجيا أخرى، وأعلنت عن هويتها الرَّافضة لأيِّ هويَّة أو انتماء أو تراث أو دين ... هويتها الوحيدة هي اللاعقلانيَّة ولا يمكن إلا أن تكون كذلك، وآثارها تدل عليها.

ولذلك ذهب أدموند ولسون الذي رأى أنَّ الرَّمزيَّة هي أوَّل مذهبٍ أدبي يمكن أن نطلق عليه اسم حداثة، من خلال دراسته لأبرز أعلام الحداثة: بيتس وبروست وجويس وغروترود شتاين إلى التَّأكيد أنَّهم جميعهم «يشتركون في الخلاص مما وضعه النَّاس إلى ما هو حقيقي، والهرب من المعقول إلى اللامعقول، ومن التَّزمت إلى العدميَّة، ومن تقديس القيم إلى إدانتها، ومن جمال العالم إلى قبحه، ومن أزليَّته إلى تلاشيه وزواله،

ومن عظمة الإنسان إلى تفاهته»[٧]. والنَّتيجة المنطقيَّة لذلك أنَّ الحداثة قد انعطفت بالفن ثمَّ الأدب ثمَّ الفكر منعطفاً خطيراً، وأدَّت إلى تحولات خطيرة فيها، فقد «تمَّ إفراغ الفنون الجميلة من إلهامها الأسطوري، وقوتها الرمزية، وجعلها أقرب (إلى) وسائل الاتصال، والسلع الاستهلاكية»[٨].

وإذا كان ولسون قد رأى في الرَّمزيَّة بداية للحداثة فإنَّ الماركسي المتشدد كريستوفر كودويل قد شحط بعيداً إذ ذهب إلى أنَّ بداية الحداثة هي بداية الرَّأسماليَّة، وقد تلونت الحداثة بألوان المراحل التي مرَّت بها الرَّأسماليَّة التي كانت آخرها سنة ١٩٣٠م إذ تظهر الأزمة النَّهائيَّة للرَّأسماليَّة. ولكنَّ ماركسيًّا آخر هو هنري لوفيفر ذهب إلى حصر ولادة الحداثة بين عامي ١٩٠٥و١٩٣٠م. وهو أقرب ما يكون إلى زمنها نشأتها الحقيقي. أمَّا الكتاب الذي أشرف عليه مالكولم برادبوري ومكفارلن تحت عنوان الحداثة Modernism فإنَّه يردُّ هذه النَّشأة إلى فترة تشكل مفاهيم الأدب الحدث؛ الشعر والرواية والمسرحيَّة، وهي الواقعة ما بين عامي ١٨٩٠و١٩٣٠م. وينحو أرنولد هاوزر منحى غير بعيد عن شبه الإجماع على فترة نشأة الحدثة عندما ذهب إلى أنَّ الانطباعيَّة هي الوجه الأول من أوجه الحداثة وعنها

---

٧ . حنَّا عبود: الحداثة عبر التَّاريخ . ص٢٨٠.

٨ . سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن . عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربيَّة المعاصرة . ضمن مجلة؛ عالم الفكر . المجلس الوطني للثَّقافة والفنون والآداب . الكويت . المجلد ٢٦ . العدد ٢ . ص٤٩.

انفرعت كلُّ المذاهب والاتجاهات الحداثيَّة: الرَّمزيَّة والدَّاديَّة والسرياليَّة واللامعقول ...[٩]

ويرى سمير غريب في دراسته أنَّ مارسيل دوشامب قد بدأ الحداثة بابتكاره الاتجاه المعروف بالأعمال سابقة التجهيز Ready Made. ويمهِّد لذلك بقوله: « لقد عاشت الفنون الجميلة عبر قرون طويلة في أطر محددة حتى أتت الدادية عام ١٩١٦م فحطمت هذه الأطر، وبخاصة مع مارسيل دوشامب. وظهر فيما بعد مصطلح الحداثة في الفن، والذي يجب أن نفرق بينه وبين مصطلح الفن الحديث. فمصطلح الحداثة يعني مفهوماً إبداعياً أكثر منه زمنياً، بينما يتحدد مصطلح الفن الحديث في مفهوم زمني يدل على الاتجاهات الفنية التي ظهرت ابتداءً من الاتجاه أو المدرسة التأثيرية في أواخر القرن التاسع عشر.[١٠]

وعلى الرُّغم من الإجماع أو شبه الإجماع على لاعقلانيَّة الحداثة فإنَّ الحداثيين العرب يصرُّون على إخراجها من جلدها والادِّعاء بأنَّها قمَّة العقلانيَّة، وذروة التَّقدميَّة، ويسار اليساريَّة ... لأنَّ الواقع العربي، والشَّارع العربي، لا يتقبَّلان مثل هذا التَّحرر الموغل في اللاعقلانيَّة والطَّعان في التُّراث والدِّين، خلاف الواقع الغربي الذي لا يجد كثير غضاضة في ذلك، ولذلك كان حداثيو الغرب صادقين مع أنفسهم وجمهورهم، وحداثيونا مواربين يسترون عوراتهم بأوراق التين.

---

٩ . انظر تفصيل مفردات هذه الفقرة عند: حنا عبود: الحداثة عبر التَّاريخ. ص٢٦٨ . ٢٨٧.

١٠ . سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن. ص ٤٤ . ٤٥.

أمَّا عن الاعتراض بأنَّ الماضي يحمل مثل معطيات الحداثة ونتاجاتها، فهو اعتراض واهٍ لأنَّه لا يوجد ما يمنع اللاعقلانيَّة من الوجود في أي زمان ومكان، وفي التَّاريخ كثيرٌ من ذلك حقًّا، ولكنَّ أيًّا منها لم يكن تيَّاراً أو مذهباً أيديولوجيًّا كما هي الحداثة، ولم توجد قطُّ في التَّاريخ لاعقلانيَّة مؤدلجة كما هي الحداثة. وفي الإطار ذاته لا بدَّ من الإشارة إلى أمرين، أوَّلهما أنَّنا لا ندَّعي أنَّ كلَّ محدثٍ أو جديد عبر التَّاريخ يتسَّم بالعقلانيَّة أو الصَّواب مقابل لاعقلانيَّة الحداثة وخطئها. وثانيهما أنَّه على الرُّغم من أنَّ كلَّ الحدثيين ينتمون إلى الاتِّجاه الإلحادي بمختلف تيَّارته، فإنَّنا لا نستطيع القول إنَّ كلَّ ملحدٍ لاعقلاني، ولكن كلُّ حداثي لاعقلاني، اللهمَّ إلاَّ الحداثيين العرب الذين خلطوا الخارج بالداخل والحابل بالنَّابل، وبالتَّالي من المضحك أن نقول إنَّ ابن الرَّاوندي حداثيٌّ لمجرد أنَّه ملحد، أو إنَّ أبا تمام حداثيٌّ لأنَّه جدد في الشِّعر ... إنَّ الحداثة أيديولوجيا لا مجرَّد مذهب أدبي أو فكري.

ثانياً: فكرة المؤامرة

والآن نعود إلى التَّساؤل الآنف: كيف استمرَّت الحداثة وهي مرفوضة منبوذة ؟!

إنَّ الأمر بسيط جدٌّ بسيط. يمكن للمرء ألاَّ ينجب ولداً طالما أنَّ الأمر مازال في إطار الإمكان، ولكن إذا انتقل إلى الفعل، أي إذا تمَّ الإنجاب فإنَّ المولود قد اكتسب حقَّ الوجود ولم يعد من حقِّ أبيه ذاته سلبه هذا الحق،

ولا من حقِّ غيره بالضَّرورة، وإذا مات المولود أو قتل بعد قليل أو كثير، أي؛ إذا فقد مقومات وجوده المادي، فإنَّ وجوده المعنوي أي؛ هويته، لا يزول. وهذا شأن الحداثة: كان من الممكن ألاَّ توجد لو تعقَّل روادها. ولكنَّها إذ وجدت فقد اكتسبت شرعيَّة وجودها حتَّى ولو رفضها الجميع، وليس من غرابة في ذلك؛ أفلا نرفض الشَّرَّ كلُّنا ؟! ولكنَّنا لا نستطيع إلغاء وجوده.

ولكن ثمَّة سبب آخر يحوم حول استمراريَّة الحداثة، بل حول انتشارها، هذا السبب هو ما سمي بالمؤامرة، فكثيرٌ من الأحاديث تدور، وقليل منها منشور، عن مؤامرة الحداثيين في الهيمنة الإعلاميَّة، والتَّهليل لبعضهم بعضاً ولمن يناصرهم مهما كانت سويته، وخنقهم من يخالفهم إعلاميًّا ... وكثير مما يدور في هذا الفلك. والحقُّ أنَّ الحديث في هذا يطول، والأمثلة المعروفة أكثر من تحصى، وما خفي منها أعظم، ولكني إن تغافلت عن قصص كل الناس فإني لا أستطيع تجاهل قصتي التي لن أسرد تفاصيلها، وحسب القارئ منها ما كسبته منذ خمس سنوات عندما خسرت كل من كان صديقاً لي من الحداثيين فقط لأنِّي نشرت حينها كتاباً عنوانه: (انهيار دعاوى الحداثة[١١]). والطَّريف في الأمر أني كلما التقيت أحدهم عبس وبسر وانكمش وانتشر، وتوعد بتحطيمي وتقزيمي في الصُّحف والمجلات. وما أكثر ما تكرر على مسامعي قولهم: إذا لم تنفع فضر ... ولكن أحداً لم يكتب شيئاً، حتَّى الإعلان الذي قد لا يزيد عن عشرين كلمة بينها العنوان

١١ . أقصد به كتابنا هذا في طبعته الأولى.

لم ينشر، (على الرُّغم من أنَّ كلَّ كتبي السابقة كانت تنال حقَّها كاملاً في الإعلان والتَّعليق)، اللهمَّ إلا الصحافي الحداثي مفيد خنسة الذي كان مسؤولاً عن الصَّفحة الثقافيَّة في صحيفة الثَّورة فقد كتب مئتي كلمة منها مئة حرف وأداة، ومئتها الثَّانية مئة إساءة وتقريع وتجريح ... من دون أن يقرأ الكتاب حتَّى المقدمة، لأنَّه لو فعل ذلك لأراح نفسه من ثلاث مزالق معيبة، بل على الأقل لم يخطئ في عنوان الكتاب. وعندما كتبت دافعاً الإساءات بتوضيحات ظلَّ يعدني بنشرها حتَّى أمات الموضوع، وأدبيات الصحافة تمنع نشر الردَّ في غير موضع الطَّعن، فظل الجرح نازفاً ... وظلَّت جراح الكثيرين نازفة. ولكن، على الرُّغم من ذلك فإنِّي لا أميل أبداً إلى فكرة المؤامرة ولا أتقبلها، وإنَّما أميل إلى أنَّ اليأس والإحباط والانهزام والاستسلام هو الأسرع إلى نفوسنا وقلوبنا، ونكاد لا نصدق متى نجد شماعة نعلق عليها تقصيرنا وتقاعسنا.

وعلى الرُّغم من عدم إيماني بفكرة المؤامرة فإنِّي مرغم على ذكر بعض الأمثلة التي تكذب إيماني وتؤكِّد هذه حقيقة أنَّ المؤامرة هي الموجودة فعلاً، ومضطر للاعتذار سلفاً إن أطلت، ومن باب العذر أيضاً أنَّ هذه الشواهد الأمثلة تفيدنا في مكان آخر من هذا الفصل هو المخصوص للحديث في تدمير الحداثيين للفن.

الأوَّل: نعود فيه إلى البدايات؛ «إلى حركة نزع القدسية عن الفن التي قام بها مارسيل دوشامب عام ١٩١٧م بعمله الجاهز "المبولة" ـ الذي لم

يفكِّر أصلاً عندما عرضها في أنه سيتم تكريسها [عملاً فنيًّا متحفيًّا][١٢]. وبعدها أصبح بقدور أي إنسانٍ أن يقول عن نفسه إنه فنان، ويجد من يصدقه. وأصبح أي شيء يمكن أن يتحول لعملٍ فني. على أعتبار أن هذا الشيء ضدَّ الفن. وهناك دائماً نقاد جاهزون يحللون ويفسرون ويبررون»[١٣].

الثَّاني: «هناك لوسيانو فابرو. Luciano Fabro الذي عرض عام ١٩٦٧م طبقة من الصُّحف القديمة على شكل مستطيل على الأرض. هذا العمل لا يمكن أن نطلق عليه نحتاً، [ولا] رسماً، [ولا] حتَّى [تكويناً]، وهو المصطلح الشَّائع لأي عملٍ لا اسم له. بعد عشر سنوات من عرض هذا العمل لأوَّل مرَّة قال عنه صاحبه إنَّه لا ينتمي إلى الفن، بل يدخل ضمن التَّحريض الفني، على أساس أن الفنَّ ليس في هذا العمل، بل هو في التَّزاوج بين التَّعليق عليه والشروح!! المدهش أنَّ الفنَّان وجد من لا يصدقه. وجد متاحف ونقاداً [عدُّوا] "كومة" الصُّحف القديمة تلك فنًّا خالصاً [على الرُّغم من] أنف صاحبه»[١٤].

الثالث: خبرٌ ذكره شوقي بغدادي في مداخلته في معركة المرايا، نقلاً عن إحدى الصحف العربية، يقول فيه: «إنَّ أستاذاً جامعيًّا في أمريكا، ضاق ذرعاً بكتابات النقاد الحداثيين الغامضة فعمد إلى "لعبة" للكشف عن ألاعيبهم، بأن انتحل أساليبهم آخذاً عبارة من هنا وجملة من هناك [من]

١٢ . سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن. ص ٤٨.

١٣ . م. س. ص ٥٢.

١٤ . م .س. ص ٥١.

دون سياق معين أو هدف واضحٍ، وأرسل مقالته النَّقدية إلى مجلة فكرية رصينة ـ كما يقال عنها ـ مهتمة بشؤون الحداثة والتَّحديث فنشرتها كاملة دونما أي تعليق. وعندئذ كشف الأستاذ المذكور عن حيلته ساخراً منهم وعمد إلى الانتقاد الصَّريح لموجة النَّقد الحداثي المتصف بالتَّعالي على القراء وتعقيد المصطلحات النقدية وغموض المقاصد»[١٥]. والهدف ذاته كان أحد أهم الأهداف التي دفعت حكم البابا إلى القيام بعمل مماثل تماماً لمثل هذا العمل، ولكن عندما فضح لعبته لم يتورع الوسط الحداثي، حتى بعض أعز صحبه، عن ترويج اتِّهام خطير له في الوسط الإعلامي والأدبي بأنَّه قد جنَّ أو (طقَّ) عقله.

الرابع: أَنَّ الأُستاذ شريف الرَّاس[١٦] عندما كان في العراق، مع أَوائل حركة الشِّعر الحر العربية، حضر مهرجاناً شعرياً، وعَجِبَ من الاندفاع الأَعمى وراء أَنصار هذه الحركة، الأَمر الذي دفعهم إلى التَّصفيق الجنوني بسخاء ما بعده سخاء، والصُّراخ الاندماجيِّ الملفت، من غير حساب، رغم تفاهة ما قيل. فطلب من الشَّاعر سليمان العيسى أَن يتوسَّط ويضمَّه إلى لجنة التَّحكيم ففعل، وفي اليوم التَّالي وقف وقال:

ـ في الأَمس أَلقى الشَّاعر (فلان) قصيدةً أَذهلت النَّاس حتَّى ضجَّت القاعة بالتَّصفيق، ولذلك أُحبُّ أَن أَقرأها لكم ثانيةً؛ وبالفعل قرأها،

١٥ ـ شوقي بغدادي: السجال بين الدكتورين حمودة وعصفور معركة خاسرة للطرفين ـ ضمن صحيفة؛ أخبار الأدب ـ القاهرة ـ العدد ٢٩١ ـ الأحد ١٩٩٩/٢/٧م ـ ص١٤.

١٦ ـ روى لي هذه القصَّة الأُستاذ الأَخ شوقي دقَّاق.

وضجَّت القاعةُ ثانيةً بالتَّصفيق الذي زلزل الأَركان. وبعدما انتهى من الإلقاء قال: ولكن أُحبُّ أَن أُخبركم أَنِّي قرأت القصيدة بالمقلوب، وغادر القاعة من الباب الخلفيِّ مسرعاً.

الخامس: «هو الألماني المشهور سيجمار بولك. Sigmar Polke الذي كان حتَّى عام ١٩٦٨م محرِّكاً للحركة التي عرفت باسم "الواقعية الرأسمالية" ثمَّ تحوَّل كما اعترف هو إلى محاربة الفن وبالذات التَّصوير ... وأخذ منذ عام ١٩٨٠م في إنتاج أعمال تهدم فنَّ التَّصوير كإضافة خليطٍ لا يصدقه عقل من الألمنيوم والحديد والبوتاسيوم والمنجنيز وغيرها من المعادن مع الشمع والهباب إلى الصور. ذلك بغرض أن تتفاعل هذه المواد مع الجو لتأكل الصُّورة. إنَّه يريد إنتاج أعمال زائلة معلناً أنَّ الفن عقاب. ومع كلِّ ذلك منحته لجنة تحكيم بينالي فينسيا عام ١٩٨٦م جائزة التَّصوير!! وكرَّس له مركز جورج بومبيدو العالمي في باريس، ومتحف الفن المعاصر في مدينة نيم، وغيرها عدداً من المعارض الكبيرة! وكتبت عنه جريدة مثل "ليبراسيون" الفرنسية في عدد ٦ أغسطس ١٩٩٤م أنَّ لوحاته جميلة بجنون!! ... هل ترون كيف صنع (الفن المعاصر) نقاده، أو كيف صنع النُّقادُ المعاصرةَ، أو صنعا [نفسيهما] معاً بالتداخل»[١٧].

أظنُّ أنَّ فكرة المؤامرة، وفكرة تدمير الفن التي سنعرج عليها بعد قليل، واضحتان في هذه الشواهد وضوحاً لا يحتاج إلى تعليق. فإن احتجَّ أحدهم

١٧ . سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن. ص٥١.

بالقول: إن في الشواهد السابقة ما يدل على تقبل هذا (الفن) من قبل الجمهور والمؤسسات الفنية الرَّسمية بما يؤكد مصداقية هذا (الفن). قلنا إنَّ هذا الاحتجاج باطلٌ لأنَّ الواقع يثبت عكس ذلك تماماً، فالجمهور قد نفر من الفن (الحداثي) وربما الفن كله، وصار يحتقره، ولم يعد له من جمهور إلا أولئك السائرون في ركبه الملتفون حول بعضهم، وكذلك شأن المؤسسات التي باتت جلها مسيرة ومهيمن عليها من قبل الحداثيين وأنصارهم الذين أقفلوا الباب أمام كل مخالف لهم، وحاربوه بكل الصُّور الممكنة التي ذكرنا بعضها في هذا الفصل. كلُّ ذلك بما يؤكد فكرة المؤامرة ويعززها. إلى جانب أنَّ الأمثلة ذاتها تؤكد هذه الحقيقة خيرما تأكيد، وتقطع دابر أيَّ شكٍّ في سوء الطَّويَّة.

ثالثاً: حقيقة الحداثيين وغاياتهم

إن كلَّ أعلام الحركة الحداثية ينتمون بشكل أو بأخر إلى الاتجاه الإلحادي على اختلاف مشاربه: الفوضوية، العدمية، المادية... وهي كلها، أي الحداثة، ذات اتجاه لا عقلاني تجلى في نتاجات أعلامها؛ الفنية والفكرية، وهذا تزارا يظهر أنَّ عدمية الحركة الدادية «ليست في ميدان الأدب وحده، بل في كل الميادين... فيقول في بيان ١٩١٨م: دادا لا تعني شيئاً... أنا ضد الأنظمة، إن الأكثر قبولاً بين الأنظمة هو ألا يكون لك مبدئياً أي نظام»[١٨].

١٨ . حنا عبود: الحداثة عبر التَّاريخ. ص ٢٦٢.

وهنا أجدني مضطراً للفت الانتباه إلى أنَّني إذ أقول ذلك فإنَّني لا أطعن في حريَّة التَّفكير والاعتقاد، ولا أطعن في الإلحاد بحد ذاته، بغض النَّظر عن اعتقادي به أو عدم اعتقادي، ولكنِّي أطعن في الخطأ والمغالطة. على اقتناعي بأنَّ الإنسان؛ أي إنسان، لا يرى خطأه خطأً، ولا مغالطته مغالطةً، وإنَّما كلُّ ذلك عين الصَّواب عنده، ولكن هي وجهة نظر تؤيدها الوقائع، ومن ذلك فإنَّ أخطر ما نراه من أخطاء الحداثيين ومغالطاتهم، ولا سيَّما العرب منهم، تكمن فيما يلي:

١ . سياسة الإيهام: يقدِّم الحداثيون حداثتهم (فكرهم) على أنَّها مشكلة مستعصية على الحل والدَّحض، وصعبة عسيرة الهضم والفهم. أمَّا الاستعصاء على الحل والرَّفض فلأنَّها تنطلق من مبادئ وأسس لا يمكن مجابهتها أو دحضها. ولذلك فإنَّ كلَّ من يرفضها أو لا يقف معها ليس إلاَّ متخلِّفاً وجاهلاً ورجعيًّا، ولا يحقُّ له أن يكتب ولا أن يتكلَّم ولا أن يقرأ ... واستناداً إلى ذلك أصبح عادل العوَّا وبديع الكسم، على جليل قدرهما وإسهامهما، في نظر الحداثيين من تلامذتهم أو تلامذة تلامذتهم الذين لم يفقس عنهم البيض بعد، مجرَّد متكلِّسين، جاهلين، لا يعرفان من الفلسفة شيئاً، وأصبح حمودة عند عصفور تلميذاً جاهلاً متخلفاً يستحقُّ الرُّسوب في كلِّ المقررات.

وإلى جانب ذلك فإنَّ الحداثيين يكتبون بلغة عسيرة، وعرة، غامضة، وأضاف بعضهم عدم خلوها من الرَّكاكة والعجمة. وقد اختلف النُّقاد في تبيان سبب هذا التَّهريج الفكري/ اللغوي، فمن قائل بأنَّ هذا طبعٌ فيهم،

ومن قائل بأنَّ السَّبب هو جهلهم في اللغة، ومن قائل بأنَّه رغبتهم في تحطيم قواعد اللغة، ومن قائل بأنَّهم يتعمَّدون ذلك لأنَّ هذه اللغة هي الكفيلة بإخراجهم من المآزق عند أي نقاش ... وأيًّا كان السبب فإنَّهم بذلك يحاولون الإيحاء بأنَّهم عسيري الفهم إلاَّ على العقول المتَّقدة الذَّكاء وعالية الفهم والثَّقافة، ظانين أنَّهم سيحرجون من يقرأ لهم فإمَّا أن يستحي من إعلان عدم فهمه لأنَّ ذلك شبه وصمة عار عليه فيسكت، أو يضطر إلى الاستسلام والتَّسليم. ولن أناقش مشكلة الوضوح والغموض في الكتابة لأنَّها غنية عن الشرح.

٢ . سياسة التَّوهين: ومن أخطر وأسوأ ما يقوم به الحداثيون هو ما يمكن تسميته سياسة التَّوهين، وذلك بإيهام الآخر بأنَّه على ضلال وخطأ مهما قال وفعل طالما أنَّه الآخر. وأنَّ الحداثيين وحدهم على صواب. وهذه لعبة مكشوفة ولكنَّها انطلت على الكثيرين للأسف، وجرَّتهم إلى المواقع التي استدرجهم الحداثيون إليها.

تقوم هذه اللعبة أو الخداع على الزَّعم بأن الفكر الحداثي وحده المصيب في كلِّ شيء، والحداثيون وحدهم الإنسانيون، وحدهم التَّقدميون، وحدهم الموضوعيون، وحدهم الديمقراطيون. وكل ما هو منهم فهو مفيد، ولخير الإنسان. وكلُّ ما هو صائب، أو من أصاب، فهو حداثي. وكل من خالفهم فهو متخلف وجاهل ورجعي وربما خائن وعميل ... واستناداً إلى ذلك، وبجرَّة قلم، أصبحت العقلانيَّة حداثة، وصار كلٌّ من ديكارت

وسبينوزا وليبنتز وفولف من أعلام الحداثة، وهذا محض إيهام، وأظنُّه وهماً أيضاً.

٣ ـ مفارقة القول والفعل: ومن أخطاء الحداثيين، وهي مغالطة، ونقطة ضعف أيضاً، أنَّهم أكثر الناس تنظيراً للديمقراطيَّة والموضوعيَّة والحوار مع الآخر... وأكثرهم ادِّعاءً ودعوة لها، ولكنَّهم أبعد النَّاس كلِّ ذلك. فجوهر الموضوعيَّة ولبها هو أن تتطابق نتائجك مع ما يتوافق وأهواءهم، والعماد الأوَّل للدِّيمقراطيَّة والحوار والانفتاح على الآخر هو أن تسمح لهم أن يقولوا ما شاؤوا حتَّى يتموا كلامهم، حتَّى ولو كان هذا الكلام تسفيهاً لك واحتقاراً. فيما يحقُّ له إسكاتك متى شاء، ويمنعك من الكلام متى شاء، وإلاَّ فأنت قليل أدب، وتجهل قواعد الحوار، وإذا تخالفت نتائجك مع ما يريدون فمنهجك غير علمي، أو ميتافيزيقي؛ والميتافيزيقي في عرفهم للأسف شتيمة وليست مبحثاً فلسفيًّا.

٤ ـ لقاء الغايات: هنا أجد الضَّرورة تلحف عليَّ لتغليب الظَّنِّ على اليقين إذ أقول إنَّ الحداثيين العرب لم يقصدوا من الانتساب إلى الحداثة أكثر من رقَّة اللفظ وجاذبيَّته، ذلك أنَّ التقاطب بينهما كبير، ولكنَّ الذي لا يمكن نكرانه هو وحدة الغايات، فكلاهما يشرئب إلى القضاء على الدِّين تحديداً، أمَّا التراث فهو عند الحداثيين الغربيين كالدِّين تماماً، أمَّا عند معظم الحداثيين العرب فالتُّراث واجهة فقط؛ إنَّهم في الحقيقة لا يرفضونه، ولكنَّ جبنهم وخوفهم من نقد الدِّين ورفضه هو الذي دفعهم إلى التَّمترس وراء رفض التُّراث، فوضعوا أنفسهم، بذلك، في موقف جدِّ حرج، إذ غدوا

كالمستجير من الرَّمضاء بالنَّار، بل كمن يحاول دفع الغيمة بالتَّلويح بيديه، فما التُّراث ؟ وكيف يمكن أن يرفضه إلاَّ إذا كان حداثيًّا بالمعنى الاصطلاحي الحقيقي للكلمة، أي إذا كان لاعقلانيًّا ؟!

هنا تلاقت الغايات بين الحداثة الغربيَّة والمتكنِّين بالحداثة من العرب، فكان الحافز الثَّاني للتَّكنِّي بها، على الرُّغم من افتراقهما في أهمِّ ما يميز الحداثة وأهمِّ ما يفتخرون به ويعتدون؛ العقلانيَّة واللاعقلانيَّة. فكان شأنهم في القسم الأوَّل شأن ماركس الذي رأى في أطروحات داروين وفرويد أعظم إنجاز حضاري معاصر فقط لأنَّهما دعَّما مذهبه بما قدَّماه.

إنَّ أشدَّ ما أخشاه الآن أن يتنطَّع لي واحدٌ، بعد كلِّ هذا الكلام، ليقول لي محاججاً: أنا حداثيٌّ ولكني عقلانيٌّ أو مع التُّراث والدِّين ...!!

رابعاً: تدمير الفن والفكر

إنَّ ما خلَّفته الحداثة من آثار في الواقع العربيِّ أسوأ بكثير جدًّا مما خلَّفته في الواقع الغربيِّ، ذلك أنَّه إذا كان ثمَّة ما يسوغ للحداثيين الغربيين ردة فعلهم تجاه واقعهم بهذه الحداثة، فليس هناك ما يسوغ ذلك في الواقع العربي، وإذا كان الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي في الغرب قد مثَّل أرضيَّة خصبة لولادة هذه الحداثة فإنَّ الواقع العربي غريب عن ذلك تماماً، ولذلك إذا كانت آثار الحداثة الأصليَّة فنًّا مشوَّهاً بأصول فإن آثار العرب الذين اقتفوا خطى هذه الآثار جاءت مشوَّهة بغير أصول.

سيباغتني الكثير من الحداثيين باستنتاج مستفزٍّ مثير للضَّحك واليأس والغثيان، يرى أنَّني منكفئ على التُّراث وأرفض الاستفادة من منجزات الحضارة الغربيَّة. لن أناقش هذا الاستنتاج لأنَّه مرفوض من النَّاحية المنطقيَّة، ولا يقول به إلاَّ أحمقٌ وجاهل. ولكني أسأل: لماذا نصرُّ على استيراد ما رفضه الغربيون ونفضوا أيديهم منه، ولا نقبل على الأشياء العظيمة التي يتمسكون بها ويمنعونها عنا.

المشكلة كما يقول سمير غريب «هي أن الأجيال القادمة ستعتبر ذلك التراث الذي كان معاصراً هو المعبر عن سنواتنا، وهكذا يضيع مبدعون حقيقيون هنا وهناك من سجلات تاريخ الفن، لأن المؤسسات لم تعرفهم أو لم تعترف بهم، وعلى الجانب الآخر فإن كثيراً مما تقدمهم المؤسسات لا يستحقون أن تحتفظ سجلات تاريخ الفن بهم، وهؤلاء الذين لا تعرفهم المؤسسات لا يقدمون في المعارض الدولية المشهورة... كما لا يعرفه أو يتجاهلهم مقتنو الأعمال الفنية. هناك أعداد كثيرة من الفنانين الكثيرين استطاعوا أن يكونوا لهم شهرة إعلامية وثروة...[١٩] الواقع أنَّهم أكثر اختصاصاً في هذه المجالات من الفن.

والواقع أيضاً أنَّ الحداثيين قد دقوا المسامير في نعش الفن وسعوا إلى تدميره، ولا أتردد في القول بأنَّهم كانوا يقصدون ذلك، انطلاقاً من «موقفهم السَّلبي من الإنسان والتَّاريخ» كما يرى جورج لوكاتش الذي أفاض في

١٩ . سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن. ص ٤٩ . ٥٠.

تشريح المواقف التي تنطوي عليها الحداثة وانتهى إلى «نتيجة مؤداها أن الحركة الحديثة لا تقود إلى تحطيم الأشكال الأدبية التقليدية، بل تؤدي إلى تدمير الأدب نفسه»[٢٠]. والأدلة كثيرة لمن شاء، منها ما سبق ذكره قبل قليل، لدى حديثنا عن فكرة المؤامرة، ومن ذلك نسوق بعض الشَّواهد التي لا تفترق عن فكرة المؤامرة أيضاً.

بداية نقف أمام الألماني المشهور «جيري ـ جورج دوكوبيل ـ Georg Dokoupil [الذي] يجرب كلَّ الأساليب الممكنة كالتَّعبيريَّة والرُّوك والخياليَّة والدِّعائيَّة. أعماله هذه في الواقع يمكن إدراجها ضمن الأعمال المضادة. في [عام] ١٩٨٧م أطلق سلسلة أعمال عبارة عن نسخ عادي لأوراق التَّغليف المعروفة على أرضيَّة صفراء وكان يستبدل الماركة الأصليَّة لأوراق التَّغليف بتعبير (لا اسم ـ Noname) على اعتبار انه ماركة جديدة.

لم يكن دوكوبيل يهدف إلى إبداع عمل فني. بل إلى طرح إشكاليَّة اجتماعيَّة ـ اقتصاديَّة. وهنا إمَّا تناهض المؤسسات الفنيَّة هذه الدَّعوة المقصودة وترفض (اللا اسم) [بوصفه] عملاً فنياً، أو أن تصدق عليها و[تعدها] عملاً فنيًّا. وقد حدث الخيار الثَّاني. وهكذا أثبت دوكوبيل أنَّ المؤسسات الفنيَّة تقبل أي شيء. عرضت أعماله تلك الرافضة، الهدامة بجديَّة في برلين، وفي معرض دوكمنتا في كاسل، وفي مدريد وغيرها.

٢٠ ـ عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربيَّة المعاصرة ـ ص١٠.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية نجد ديفيد سال . David Salle أحد المصورين الساسيين لما بعد الحداثة، وقد عرَّف النَّاقد توماس لاوسون . Thomas Lawson أسلوب سال بأنه: "استراتيجيا تسرب وتخريب تستخدم قواعد راسخة ضدَّ نفسها، على أمل تعرية الاضهاد الثقافي". فأي اضطهاد ثقافي؟ يوضح ديفيد سال صراحة وبقوة أنَّه: "يحاول أن يتخلص من الفن" ومع ذلك عرضت الولايات المتحدة الأمريكيَّة أعماله في متحف وتني . Whitney، ومنذ ذلك الوقت تعرض له متاحف أخرى في العالم صوره الفوتوغرافية الكبرة لمؤخرة فتاة بجانب تعبيرات تذكر الفن الزنجي.

وهناك أيضاً الفرنسي جون . ميشيل البيرولا . Jean Michel الذي عرف بتصوير الجيد المثقف، وعندما دعي للاشتراك في معرض برلين عام ١٩٨٦م، ليمثل الفن الفرنسي مع نخبة من الفنانين، اختار السخرية والتَّحريض... وحجز الألمان مساحة كبيرة في مدرسة قديمة للعمارة لإقامة هذا المعرض. طلب البيرو أن تعلق أعماله على أقصى ارتفاع قرب السقف بحيث لا يتمكن الزوار من رؤيتها أو لا يرونها جيداً، كذلك أصر على دهن الحائط بلون أحمر يحطم أي عمل يوضع عليه. وبعد ذلك بقليل لم يقبل أن يعرض في صالة عرض أخرى إلاَّ إذا وضعت لوحاته على الأرض ووجهها إلى الحائط، وعدم رؤية الزوار لها... وتعترف المؤسسات الفنية به فناناً كبيراً، وعين كذلك أستاذاً في المدرسة القومية العليا للفنون الجميلة[٢١].

٢١ .كل هذه الشواهد منقولة عن: سمير غريب: الفن الحديث والحداثة في الفن . ص٥٢.

ومن الأمثلة التي يغصُّ بها الواقع جاء في صحيفة الأسبوع تعليقٌ طريفٌ على وقائع مماثلة يقول: «لو عاش جحا في زماننا لما وجد لنفسه ولا لنوادره مكاناً وسط هذا الكم الهائل من تقاليع رسامي الفن التَّشكيلي، فمنذ أيام حدثت واقعة طريفة بمتحف الفن الحديث في روما حيث ظلت إحدى اللوحات معلقة بالمقلوب لمدة أربعة أشهر، من دون أن يلتفت أحد من مسؤولي المتحف لهذا الخطأ حتى اكتشفه أربعة من الهواة. والغريب أن أحد هؤلاء المسؤولين علق قائلاً: لما تشغلون أنفسكم إذا كان صاحب اللوحة لم ينتبه ؟!

دكتور قدري كامل أستاذ الفن التشكيلي أن تقاليع ونوادر بيكاسو لم ولن تنتهي، ففي العام الماضي على سبيل المثال كانت اللوحة الفائزة في صالون شباب الإسكندرية عبارة عن برواز داخله لوحة بيضاء خاوية، ومن قبلها كانت اللوحة عبارة عن بعض القمامة ملتصقة ببعضها، والغريب اللوحة كانت تحمل عنوان: (قاع النهر!!). أما الفنان التَّشكيلي إبراهيم عبد الملاك فيعلق بأن الفن التشكيلي أصبح (مولد وصاحبه غائب)، ففي إحدى المسابقات فاز أحد الرسامين من دون أن يستخدم فرشاة الرسم، لأنَّ سعادته غمس ذيل الحصان في البويا، ثم وضع لوحة خاوية خلفه، ثم قام بإثارة الحصان لينثر البويا فوق اللوحة. وكرر السيناريو نفسه أكثر من مرة مع تغيير الألوان ليخرج لنا لوحة عبارة بقعة لونية. وفي لوحة أخرى

استبدل الفنان نفسه بقرد أعطاه فرشاة الرسم، وترك له حرية أن يرسم ما يشاء، [وعلى الرغم من] هذا فازت اللوحة في إحدى المسابقات»[٢٢].

ومن أخطر النَّتائج التي أوصلتنا إليها الحداثة تلاشي الحدود والفواصل بين الفن واللافن، بين الفَّنان والمدَّعي «وأصبح كل فنان أو منتج لعمل يصفه بالفني [حراً] في ادعاء ما يريد. حتى أصبح العمل الفني ما يقول عنه صاحبه إنه فن، وكل ما يكتب عنه الكتاب والنقاد أنه فن، وكل ما يقتنيه متحف، أو يعرضه معرض على أنه فن»[٢٣].

ولكنَّ الفن لم يمت، ولن يموت.

خامساً: وماذا بعد ؟

إنَّ نقدنا للحداثة بنسختيها؛ العربية والغربيَّة، هذا النَّقد القاسي لا يعني أنَّنا سنلغي وجودها، فهذا في حكم المستحيل. ولا يعني أيضاً أنَّها لم تقدم شيئاً مفيداً أبداً؛ أكثر ما أراه فيها أنَّها درس في الثَّورة والتَّمرُّد، ومن أهمِّ ما كان بسببها هو قدح الأذهان التي يمكن أن تُقدح بغيرها أيضاً.

أمَّا عن المعركة التي نحن في معمعانها، والتي سيشتدُّ وطيسها كثيراً جدًّا، فقد سمِّيت معركة القرن العشرين وهي في مطالعها لا لأهمِّيَّة عصفور وحمودة مع احترامهما، بل لأنَّها سلطت أشعة الشَّمس على أعين أثقلها الرَّمد، وفجَّرت لغماً أعيا مهندسي الألغام تفجيره. وإنِّي أعوِّل على جند هذه

٢٢ . أميمة إبراهيم: القرود والخيول ترسم واللوحات تفوز بالجوائز . ضمن صحيفة؛ الأسبوع . العدد ١١٦ . الاثنين ٢ أيار/ مايو . ١٩٩٩م . ص٢٣.

٢٣ . م . س . ص ٥٠.

المعركة جميعهم الكثير الكثير في أن تكون الثَّمرة هي الإمساك بأفضل مفاتيح دخول القرن الحادي والعشرين. ولأنَّ واقعنا العربي مأساويٌّ إلى الحدِّ الذي يقتل التَّفاؤل قبل أن يكتمل الشَّهيق الذي ينبث في أوَّل أنفاسه فإنِّي لا أريد أن أنغِّص على تفاؤلي باحتمالات ألاَّ تثمر هذه المعركة عن شيءٍ ذي شأن. ولكنِّ لا أستطيع إلاَّ القول: إنَّ الفرصة المتاحة أمام مفكرينا ومبدعينا، في هذه السَّنة، لفعل ما يمكن أن يعلي من شأن الأمَّة العربيَّة، فرصة لن تتكرَّر قبل مئة عام.

مَتَى يَثْقُلُ الكلامُ عَلى القَلْب ؟ !

رَدٌّ على ((ثقل المفردات)) لمفيد خنسة

القرَّاء والمتلقون أعظم بكثير مما تتصوَّره وأقوى مما تتخيل، فإليهم وحدهم يعود الفصل في الموضوع، لأنَّهم في المحصلة هم الذين يقبلون أو يرفضون.

يقول ما يشاء واترك الحكم للتَّاريخ،
إلاَّ إذا كنت تريد أن تلوي عنق التَّاريخ فإنَّك
إن استطعتَ عظيمٌ !!!

كتب الصَّحافيُّ العزيز **مفيد خنسة** في عدد الثُّلاثاء ١٩٩٦/٥/٧م من جريدة الثَّورة تعليقاً خفيفاً على كاتب ثقيل اللفظ والدَّم هو (أنا)، من دون أن يذكر اسمي، ربَّما حرصاً على مشاعري أو عدم تأثُّري من شدَّة وطء أحكامه ولسع سياطها، وإن بدوت في كلامه بليداً خلواً من الأحاسيس. قال ـ وأحبُّ أن أعيد القول بحرفيَّته ليكون واضحاً أمام القارئ(*) :

١ ـ هل للمفردات ثقلها الخاص ؟!

٢ ـ يقال إنَّ الكلمة ذات أثرٍ (على) النَّفس قد تفوق عقوبة الضَّرب المبرِّح أحياناً، وهي في الوقت نفسه قد تكون أبلغ من أيِّ مكافأة يمكن أن ينالها المرء.

٣ ـ فلماذا يستخدم أهل الكتابة مفرداتهم دون أن يحسوا بثقلها الخاص على النَّفس.

٤ ـ وإذا كان ذلك مبرِراً لهم في اللقاءات الخاصَّة؛ فإنَّ ذلك لا يجوز لهم بحال من الأحوال أن تتحوَّل تلك المفردات والصِّياغات إلى نصوص مكتوبة.

(*) .كان من المفترض أن يحدث ما يجب أن يحدث، وهو ما يحدث في كلِّ بقاع الأرض، أن ينشر هذا الرَّد في موقع نشر الإساءة ذاته، ولكنَّ الأستاذ مفيد خنسة رفض منحي حقي هذا.

٥ . حين نقرأ عنواناً لكتاب مثل «انهيار الشعر الحر» و «انهيار (تجربة) الحداثة». ويخصص لمثل هذه العناوين الكتب لتقديم حجج واهية مسطحة من خلال تجربة كاتبها التي لا تتجاوز السَّنوات القليلة في كتابة الشعر دون أن يصدر له (ديواناً شعرياً واحداً).

٦ . فكيف لا يمتلك مثل هذا الكاتب إحساساً بثقل مفرداته المريعة ؟! وكيف يمكن لهذا الكتب أن تمر إلى المكتبة ؟!

٧ . إنَّ الكتابة هي مسؤوليَّة أخلاقيَّة بالدَّرجة الأولى ومن الضَّروري بمكان أن تراقب مثل هذه الكتب التي تصدر عن دور خاصَّة على المستوى الإبداعي والفنِّي.

٨ . فما ذنب القراء والمتلقين أن تجلد أرواحهم ونفوسهم بثقل مثل هذه المفردات إذا كانوا يتمتَّعون بحساسية لا تنجيهم من الإحساس المرهف بها، في حين أن كتابها ليس لديهم تلك الحساسيَّة والإحساس بما يكتبون.

٩ . قليلاً من الرَّاحة والرَّحمة بنا من هؤلاء.

بدايةً أقول: مهما كان أو سيكون، سأظلُّ مؤمناً بالحكمة العُمَريَّة الرَّائعة: «رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي». وبالإيمان ذاته أنظر إلى الحكمة المقابلة المنسوبة إلى المسيح عليه السَّلام: «عجبت ممن يرى القذى في عين أخيه ولا يرى الجَذْعَ المعترض حدقه».

وأعترف بدايةً أيضاً بأنِّي لم أكن خفيف الظِّلِّ أبداً في كلامي وأحكامي في تجربة الشِّعر الحرِّ على نحو الخصوص، وفي حركة الحداثة على العموم في كتابيَّ: «انهيار الشِّعر الحرِّ» و «انهيار دعاوى الحداثة». لقد كنتُ فعلاً حَدِّيًّا وحادًّا في تعاملي مع الموضوعين، لأنَّ المهادنة الكاذبة، والمجاملة الخادعة، لم يعد لها مكان في البحث العلمي، ولا في أي ميدان فكري. ولذلك فإنَّ العادة التي تأصَّلت في نفوسنا في اللفِّ والموارية والدَّوران يبغي أن تستأصل وتبتر من جذورها، لأنَّ اللفَّ والدَّوران يؤدِّيان إلى الغثيان، والموارية تقود إلى المتاهة. وكلتاهما نتيجة نحن بغنى عنها. وحتَّى نصل إلى الحقيقة ونثلج صدرنا بها يجب أن نكون واضحين إلى أقصى حدود الوضوح والصَّراحة، على الرُّغم من أنَّ الحقيقة مرَّة، والصَّراحة مزعجة، ولكن من لم يصبر على المر لم تصف مشاربه.

وأنا يا عزيزي لن أدافع عن ذاتي، لأنِّي لا أراها مذنبة أوَّلاً، ولأنِّ مقتنعٌ بما قلت ثانياً، ومطمئنٌّ إلى موضوعيَّتي ومصداقيَّتي في مناقشة موضوعاتي ثالثاً. وكذلك لن أدافع عن الحقِّ والحقيقة لأنَّهما بغنى عن جهودي، ولا ينتظراني ليثبتا ذاتيهما؛ فالتَّاريخ لا يرحم ولا يماري أوَّلاً، ولا يصحُّ إلا الصَّحيح ثانياً، ولأنَّ مصير الغثِّ الفناء والثمين يرسو حيث يشاء. ولذلك فإنَّ كلَّ ما سأفعله هو أنِّي سأزيل اللبس الذي وقعت أنت فيه في الكتابين، معتمداً على كلامك فقرة تلو فقرة:

١ + ٢: نعم للمفردات ثقلها الخاص والعام أيضاً. قد تكون المفردات ثقيلةً لأحدِ سببين أو كليهما معاً، ولا ننفي ثالثاً لهما؛ أولهما أن يكون الكلام غير موزونٍ ولا مسؤول مع اتِّصافه بالغلظة والميوعة أو السُّخف أو كليهما معاً، وإذ ذاك يكون شأن هذا الكلام وصاحبه شأن حمار **شوقي** الذي ردَّته الموجة قائلةً لرفاقه:

خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلعه لأنَّه لا يهضمُ

وثانيهما أن يكون المتلقِّي ساخطاً كارهاً غير موضوعيٍّ في تعامله مع هذا الكلام، فإنَّه لذلك لا يرى فيه إلاَّ حبالاً تلتفُّ حول عنقه وخِرَقاً تكتم أنفاسه، ولو تنزَّه المرء عن تعصُّبه في ميوله وأهوائه لكانت أحكامه موضوعيَّة، ولأعطى الآخر حقَّه، بغضِّ النَّظر عن عقائده وأفكاره. ولكنَّنا للأسف غير المحدود لم نستطع حتَّى الآن أن نستنبت في نفوسنا بذرة احترام الرَّأي الآخر حتَّى ولو كان هو الأصحُّ.

٣ ـ أمَّا لماذا يستخدمُ أهل الكتابة مفرداتهم من دون أن يحسوا بثقلها الخاصِّ على النَّفس فهو لأحد سببين؛ فإمَّا أن يكونوا من غير أهل الكتابة ـ وهذا هو **السبب الأوَّل**. ولذلك فإنَّهم لا يدركون معنى عملهم ولا يقدرون قيمة الكلمة ولا وقعها على النَّفوس، إلى جانبِ جانبٍ من الجهل وعدم المبالاة ... ولا نكترث بذلك كلِّه لأنَّهم أوَّلاً وأخيراً متطفِّلون على (أهل الكتابة)، **ولكن يجب أن يحاسبوا. والسَّبب الثَّاني** هو أنَّهم لكونهم (أهل كتابة) فهم أصحاب مواقف، وصاحب الموقف إمَّا أن يكون مسالماً

يريد سلَّته من دون عنب فيجنح إلى مهادنة الجميع ولو ببعض التَّنازلات، أو أن يكون ناريًّا لا يعرف الحلول الوسطى ولا يقبل ابتسامات المهادنة الصَّفراويَّة التي تقصِّر العمر، ولذلك فإنَّه لا يكترث بثقل كلامه ولكنَّه يحسُّ به.

٤ . وهنا أعجب منك يا عزيزي . كما عجبت من كلِّ كلامك ودهشت . كيف استطعت الفصل في الأحكام والمواقف بين مكتوب ومنطوق، لتجعل بذلك للمفكر شخصيَّتن أو وجهين، ولتفصل من ثمَّ بين فكر المفكِّر وممارسته، وهذا أهمُّ ما أخذ الحداثيون وأسلافهم على عاتقهم أمر القضاء عليه لأنَّه فعلاً أخطر الأخطار أن نأمر النَّاس بما لم نأتمر به وننهاهم عمَّا لم ننته عنه، وأن نكون صادقين في التَّعبير عن أفكارنا. فكيف نكون كذلك إذا كان كلام الليل يمحوه النَّهار ؟ أظنُّ أنَّك تريد غير ذلك ولكن كلامك لا يبتعد عن هذا المعنى أبداً، فلعلَّ التَّعبير خانك.

٥ . أمَّا هذه الفقرة ففيها حكمان انفجاريَّان كان ينبغي التَّروي قبل إطلاقهما.

أولهما أنَّ حججي واهية مسطَّحة، وهذا زعم كان من الواجب أن تؤيده بالدَّليل والمناقشة الموضوعيَّة، أي من دون اجتزاء كلامٍ من سياقه أوَّلاً، ومن دون تأويل الكلام بما لا يحمل ثانياً، وإن كنتُ احترزتُ من مخاطر التَّأويل فأفصحت عن مرادي بجلاء ناصعٍ ومنهجٍ عقليٍّ متماسكٍ منطقيًّا ومؤكَّدٍ علميًّا.

ثانيهما أنَّ حججي «كانت من خلال تجربة كاتبها التي لا تتجاوز السَّنوات القليلة في كتابة الشِّعر دون أن يصدر له (ديواناً واحداً).. وهنا أقول: لو انتبهت قليلاً في أثناء القراء . إن قرأت . لعلمت أنَّ تجربتي في كتابة الشِّعر لا تقلُّ عن العشرين سنة إلاَّ سنة، والذي مزَّقته من أشعاري لا يقلُّ عن الدَّواوين السِّتة الجاهزة عندي الآن، وقد نشرت من شعري الكثير من القصائد في أماكن مختلفة ... فإن لم تقرأ منها شيئاً فتلك مسؤوليَّتي لأنِّي لم آتيك بكلِّ قصيدة تنشر لأطلعك عليها **كما هو الواجب في حمل الكتب إليك**. فحقُّك في رقبتي. وفيما خلا ذلك كلَّه فإنِّي لم أعوِّل على تجربتي أبداً في إثبات انهيار الشِّعر الحر، لأنَّ ذلك كان بحثاً مستقلاً بذاته كتبته منذ خمسة عشرة سنة لم أفكِّر بإدخال أي تعديلٍ عليه. **إضافة إلى ذلك أنت تعلم أن جلَّ نقَّاد الشِّعر والفنون في ربوعنا لم يمارسوا أيَّ فنٍّ من الفنون التي ينتقدونها، فهبني واحداً منهم هل تخرب الدُّنيا ؟!**

٦ . أمَّا «كيف لا يمتلك مثل هذا الكاتب إحساساً بثقل مفرداته المريعة ؟! وكيف لهذا الكتب أن تمرَّ إلى المكتبة ؟!». فإنِّي أستميحك العذر من عدم معرفتي بما يشنِّفُ أذنيك ويطربك حتَّى أكتبه لك. وإن كان وجود كتبي في المكتبات يزعجك فلا مانع عندي من سحبها. ولكنِّي أتساءل هنا: أتضمن لي أنَّ ما يسرُّك يسرُّ الجميع ؟! ولعلَّ الذي أكتبه لأسعدك أزعج الآخرين وأكربهم فماذا تقول ؟

عزيزي؛ أنا لا أكتب لأسعدك أو أسعد غيرك، أنا أعبِّر عن موقفي الذي يعبِّر عن الحقيقة على الأقل من وجهة نظري، ولذلك لم أتهيب، في عرض هذه الحقيقة، من عرضها بمنهجٍ علميٍّ سليم لا عوج فيه ولا تستطيع الطَّعن فيه، وبلفظ واضح مفهومٍ بعيدٍ عن الغموض والألغاز والمتاهات والموارابات ... فإن سرَّك لم أسعد بسرورك، وإن لم يسررك لم أنزعج لأنِّي لست تاجراً يبيع الكلمات بقسائم الشُّكر. ولكنِّي لا أحبُّ أن أزعج أحداً، ولم أسئ إلى أحدٍ، ومن رأى غير ذلك فليأت بالدَّليل وأنا مستعدٌّ للاعتراف بالذَّنب والاعتذار.

٧ ـ وأمَّا الكتابة مسؤوليَّة أخلاقيَّة فهي كذلك، وكتبي تُجَسِّدُ أخلاقي ولا أتنصَّلُ منها أبداً، بل أعتزُّ بها. والرَّقابة لا تحجر على الأفكار «فرقابة الفكر هي رقابة الضَّمير». ثمَّ لماذا تجعل الرَّقابة هي الحكم ولا تجعل الزَّمان هو الذي يفصل ؟ ألا ترى إلى أنَّه لا يصحُّ إلا الصَّحيح ولا يدوم إلا الأصلح ؟! دع كلَّ واحدٍ يقول ما يشاء واترك الحكم للتَّاريخ، إلاَّ إذا كنت تريد أن تلوي عنق التَّاريخ فإنَّك إن استطعتَ عظيمٌ !!!

٨ ـ وفيما يخصُّ القرَّاء والمتلقين فلا تخف عليهم لأنَّهم أعظم مما تتصوَّر وأقوى مما تتخيل، وإليهم وحدهم يعود الفصل في الموضوع، وهم الذين يقبلون أو يرفضون، وكما أعطيت لنفسك حقَّ أن تصوغ من كلامك للقراء بلسمهم وإكسير سعادتهم اعطني الحقَّ في أن أزعجهم لكي يشعروا بقيمة بلسمك وإكسير سعادتك فيصفِّقوا لك ويكسروا الجرار خلفي.

٩ . قليلاً من الموضوعيَّة يا عزيزي؛ فكثيرها صعبٌ وكلها مستحيل، لقد كنت جائراً يا عزيزي بل لقد كنت مُسيئا ... ... والأديب من الأدب، والأدب من الخلق المحمود، فبأي منطق يصح اجتماع النقيضين في الشيء ذاته ؟؟!!!

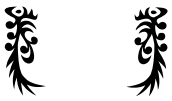

في ثوب الخاتمة

الحداثة اصطلاح بحاجة إلى الضبط

إنَّ الذين يحاربون الحداثة كلهم إنَّما يحاربونها بمعناها اللاعقلاني الذي لا يمكن له أن يستمر أو يثبت جدواه ولا جدارته في أي واقعٍ كان. أما الحداثة بمعنى سيرورة التَّقدم التَّاريخي فإن فيها قولاً آخر.

يبدو أنَّ إصدار الكتاب؛ أي كتاب، في طبعات جديدة أمرٌ ينطوي على شيءٍ من الأهميَّة والضَّرورة في بعض الأحيان، حتَّى ولو لم يكن ثمَّة إضافة أو تعديل يستحقان الذِّكر. وعلى الرُّغم من عدم ميلي إلى تخصيص بعض الموضوعات بالأهمِّية من دون غيرها، اللهم إلاَّ ما استحقَّ الوضاعة بجدارة، فإنّي لا أستطيع إنكار أنَّ هناك موضوعات تفرض ذاتها على المتلقي بجدارة، لسبب أو لآخر. ومن هذه الموضوعات الحداثة.

مما لا شكَّ فيه أنَّ مشكلة الحداثة من أعوص المشكلات المطروحة على بسط ساحاتنا الفكريَّة العربيَّة، وحتَّى العالميَّة. ولكنَّ المشكلة المعضلة في ذلك تمثل في ازدواجيَّة الدَّلالة المفهوميَّة لهذه المفردة في اللغة العربيَّة. إنَّها تطلق على الـ Modernity والـ Modernism في الوقت ذاته، وشتَّان شتَّان ما بين المفردتين. فالأولى مفهومٌ له بعده المعرفي والتَّاريخي وتجسُّداته الواقعية في مراحل التَّاريخ البشري كلها. والثَّانية نزعة عقائديَّة Ideology، هي بما لا يقبل أدنى شك أبعد ما تكون عن العقلانيَّة، وربَّما المعقوليَّة.

لن نتبسَّط هنا في تفصيل القول في هذين الاصطلاحين وسوء فهم الفرق بينهما جهلاً أو تجاهلاً، لأنَّ هذا مما ألجأننا إلى إعادة إصدار الكتاب في طبعته الجديدة المزيدة، فخصصنا له فصلاً هو: (الحداثة بين العقلانيَّة واللاعقلانيَّة)، وهو العنوان الجديد للكتاب.

ولكن حسبنا أن نشير هنا إلى أنَّ الحداثة Modernity لا يمكن أن تجحد أو تجابه أو ترد، لأنَّها، بمعنى من المعاني، تمثل السَّيرورة التَّاريخيَّة بمختلف معطيات التَّقدم التَّاريخي وميادينه، وبهذا المعنى تناولنا الحداثة في معظم فصول الكتاب، بل كلها باستثناء فصل واحدٍ هو المسمى بـ « تمييع الحداثة ». ففي هذا الفصل تمَّ الانتقال من الحداثة بمعناها غير الاصطلاحي، أي المعنى الذي لا خلاف فيه ولا جدال أبداً، إلى المعنى الاصطلاحي الذي شاع وراج، وهو المعنى المذهبي أو العقائدي، وهو الذي رفض وحورب. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أمر مهمٍ وهو أنَّ الحداثة بالمعنى الأول، أي بمعنى السيرورة التَّاريخيَّة لم يستخدم في الفكر العربي إلاَّ في فترات متأخرة من القرن العشرين، بينما هو في الفكر الغربي واضحٌ غير ملتبس لوجود لفظ لكلِّ معنى، ومن هنا بدأ الخلط بين الحداثتين، وبدأ اللعب على أوتار الازدواجيَّة الدَّلاليَّة للفظة الحداثة.

استناداً إلى هذه الوضعيَّة التَّفارقيَّة، المصطنعة بالمصادفة أو القصد أو المفارقة، أمسينا في متاهة عويصة، وأصبحت المناقشة معها غير مجدية لأنَّها لا تقف على أرضية مشتركة، على الرُّغم من أنَّ السَّقف فيما يوحى إلينا واحد.

يبدو للكثيرين أنَّ المشكلة بسيطة وحلها سهل، ويكفي لذلك أن نحدد الاصطلاح ونتفق عليه، وهذا أمر جد مقبول، ولكن المشكلة هي أنَّ الحداثيين العرب معظمهم، إنَّما هم من أنصار الاتجاه المذهبي، العقائدي، اللاعقلاني، ولذلك افتعلوا هذه الملابسة في الاصطلاح، واستتروا وراءها لأنَّها درع لا يمكن أن يخترق، وإلاَّ لم يكن ثمَّة ما يسوغ ترجمة مفردة Modernity بالحداثة في الوقت الذي شاعت فيه في الفكر العربي مفردة الحداثة بوصفها مقابلاً للاصطلاح Modernism.

إنَّ الذين يحاربون الحداثة كلهم إنَّما يحاربونها لأنَّها بهذا المعنى اللاعقلاني الذي لا يمكن له أن يستمر أو يثبت جدواه ولا جدارته في أي واقعٍ كان.

ونحن عندما كتبنا (انهيار دعاوى الحداثة)، فقد قصدنا الحداثة المذهبية هذه لا الحداثة بوصفها سيرورة تاريخيَّة، وعلى الرُّغم من ذلك فإن الذين احتجوا علينا وتذمروا منا بسبب هذا الكتاب كثيرون، كلهم من أنصار الحداثة؛ حداثة اللامعقول في أغلب الظن، فكل ذلك الاحتجاج والتَّذمر والوجوم ... إنَّما كان قبل أن يفتح أحدهم أحد غلافي الكتاب أو يعرف ما فيه.

الطَّريف في الأمر هنا أمران، أولهما أنَّ كثيراً من هؤلاء أطلقوا أحكامهم على الكتاب وحملوا هذه الأحكام وداروا بها من دون أن يقرأوا الكتاب، ولذلك كانت أحكامهم ومناقشاتهم بعيدة عن أجواء الكتاب وعن أطروحاته وغاياته، ومفتقرة إلى سند علمي أو عملي.

وثاني الأمرين أن التسرع والارتجال كان يدفع هؤلاء جميعهم إلى عدم فهم العنوان ذاته: (انهيار دعاوى الحداثة)، فلم يستقر في ذهن أحدهم إلا أنَّ الكتاب هو: (انهيار الحداثة) أو (انهيار تجربة الحداثة)، وشتان شتان ما بين عنواني الواضح الدلالة دقيقها وبين فهم منه.

إنَّ المعنى المقصود من العنوان واضحٌ من النَّاحيتين اللغويَّة والمنطقيَّة، وليس ثمَّة أيِّ لبسٍ أو غموض يستوجب أقلَّ العناء. فالدَّالَّة الرَّئيسة فيه هي الانهيار، وحكم الانهيار من صبٌّ على الدَّالَّة المحمولة على الحداثة وهي دعاوى الحداثة، وليس على الحداثة بحدِّ ذاتها، حتَّى ولو كانت الحداثة التي نرفضها وهي الحداثة اللاعقلانيَّة. فكلُّ ما يقرره عنواننا هو أنَّ هناك حداثة، ولهذه الحداثة دعاوى، وهذه الدَّعاوى ـ المكافئة من باب المعنى للادعاءات ـ هي المنهارة، هي غير المتماسكة.

ومن ثمَّ فإنَّ الحداثة بما قامت به من عقلانيَّة أو لاعقلانيَّة ... قد وُجِدَت وامتلكت مشروعيَّتها في الوجود، ونفي وجود الموجود متعذرٌ منطقيًّا وعقليًّا. ولكنَّ خصائص هذا الموجود ومعطياته لا يمكن إلاَّ أن تكون خاضعةً للنقاش والجدل. ومعطيات الحداثة هي الموضوعة تحت مجهر البحث والنقد، ومن المتعذَّر دحض هذا الكلام حتَّى وإن استحوذت الحداثة على تقبل كلِّ النَّاس، بأي معنى كان للحداثة.

الدَّعوى في اللغة هي الكلام، ولا يسمَّى القول في العربيَّة كلاماً إلاَّ إذا أفاد معنًى. ولكن ليس كلُّ كلامٍ يجوز أن يكون دعوى، أو أن يسمى بها،

فالدَّعوى بمنزلة الادعاء، والدَّعوى والادعاء أن يقرر الإنسان لنفسه حقًّا أو أن يحكم لنفسه بحقٍّ، ويلتزم إثباته لنفسه مع دحض ما يُحْتَجُّ به عليه. وإلا بطل الادعاء أو الدَّعوى.

ومن خير من عرَّف الدَّعوى الإمامُ **الغزَّاليُّ** الذي قال في (محكِّ النَّظر): «نسمي العلم التَّصديقيَّ الذي هو نسبة بين مفردين دعوى، إذا تحدَّى به المتحدِّي ولم يكن عليه برهان، وكان في مقابلة القائل خصمٌ، فإن لم يكن في مقابلته خصمٌ سميناه قضية»[٢٤].

ومن ثمَّ فإنَّ عنواننا يعني أنَّ ما تدَّعيه الحداثة مازال غير مثبتٍ حتَّى الآن، وإلاَّ خرج من إطار الدَّعوى. ومن هذا الباب فإنَّنا نحكم على هذه الدَّعاوى بالانهيار. على أنَّنا مضطرون إلى التَّكرار مرَّات ومرَّات أنَّ المقصود بالدعاوى المنهارة هنا هي دعاوى الحداثة اللاعقلانيَّة التي تبسَّطنا في شرحها وتوضيحها بشكل خاص في «تمييع الحداثة» و«الحداثة بين العقلانيَّة واللاعقلانيَّة»، لا دعاوى الحداثة بمعنى السَّيرورة التَّاريخيَّة، علماً بأنَّها هي الأخرى ذاتها أيضاً غير منزَّهة عن النَّقد والدَّحض، ولكنَّها ليست موضع النِّقاش والجدال ... بل هي مسألة أخرى تماماً.

وأخيراً: إنَّ المشكلة القائمة الآن هي مشكلة لغويَّة بالدَّرجة الأولى، ذلك أنَّ الحداثة التي راج ذكرها والتعامل معها في الأوساط العربيَّة بمختلف مستوياتها إنَّما هي الحداثة المذهب، أي الـ Modernism. ومحاولة إعادة بناء

[٢٤] . جميل صليبا: **المعجم الفلسفي** . مادة دعوى.

الذِّهنيَّة العربيَّة لتناسي هذا التَّصوُّر والتَّعامل مع الحداثة بوصفها سيرورة التَّقدم التَّاريخي أمر صعبٌ طويل الأمد، ولكنَّه ليس متعذراً أو مستحيلاً. ولحل هذه المعضلة أو تجاوزها نجدنا أمام أحد احتمالين:

إمَّا أن نبقي اصطلاح الحداثة بمعناه غير المتقبل في الواقع العربي، وحتَّى غير العربي، ونبحث نحن العرب عن مفردة أخرى بديلة تحل محل الحداثة بمعنى سيرورة التَّقدم التَّاريخي كالتَّحديث مثلاً ...

أو أن نختار الدَّرب الأطول، ولكنَّه في ظني قد صار الأفضل، علىٰ الرُّغم من أنَّه سيبقي الغموض قائماً، وسيبقي اللف والدَّوران في المتاهات قائماً، ويتمثل أوَّلاً في الاعتراف للحداثيين اللاعقلانيين بأنَّهم نجحوا في جر الآخرين إلى مواقعهم، أي في استخدام الحداثة بمعنيين متناقضين تماماً؛ (عقلانيٌّ) ولاعقلاني. (العقلاني) يعني السيرورة التَّاريخيَّة القائمة على التَّراكمية والتراكبيَّة، واللاعقلاني يعني التَّعلق في الهواء مع قطع كلِّ صلة مع الماضي والحاضر وربَّما المستقبل. ويتمثل ثانياً في إقرار استخدام اصطلاح الحداثة للسيرورة التاريخيَّة والبحث عن اصطلاح بديل للحداثة المذهبيَّة اللاعقلانيَّة، وأقرب اصطلاح إلى هذا المعنى، وإن كان لا يؤدِّيه تماماً هو إلحاق الحداثة بواو التمذهب وياء النسبة فتصبح: الحداثويَّة.

صحيح أن الحداثوية قد لا تؤدي الغرض الدلالي تماماً، لأنَّ أكثر ما يعنيه هذا الاصطلاح هو الحدَّة في التَّعصب للحداثة،

ويبقى الجانب اللاعقلاني مغفلاً، وصحيحٌ أنَّه قد يقود إلى لبس في كلِّ المفاهيم والاصطلاحات المقارنة له لفظاً فيجعلها كلها ذات بعد لاعقلاني، كالشيوعيَّة والعلمويَّة والعصرويَّة والسلفويَّة وغيرها كثير، فإنَّه أنسب ما يمكن أن يحل لنا المشكلة إن نحن اخترنا هذا الاحتمال.

صحيحٌ أنَّنا آثرنا الاحتمال الثَّاني لجملة من الأسباب، إلاَّ أنَّ عواقبه كثيرة معظمها غير مأمون، وأهم هذه العواقب أنَّ الحداثويين العرب في الأصل لن يقبلوا أن يسموا بالحداثويين، لأنَّ لا يسرهم أبداً أن يوضعوا في خانة اللاعقلانيَّة التي هربوا من انكشافها إلى التَّستر وراء ورقة السيرورة التاريخية، ولذلك فإنَّ المواربة واللف والدوران سيظل قائماً ومسيطراً. وهذا ما لا نجده عند الحداثويين الغربيين لأنَّهم واضحون، صريحون، لا يستحون من حقائقهم، ولا يخجلون منها، إنَّهم فخورون بالإعلان عن هويتهم على الرُّغم من أنَّ السواد الأعظم من النَّاس والمفكرين والأدباء يرفضونها، وهذا ما يستحقون عليه الاحترام والتَّقدير، لا ما جاؤوا به. فهل سنظل ندور في الدوامات والمتاهات ؟!

إنَّ المشكلة بحاجة إلى حل، ومجامع اللغة العربية في الوطن العربي كلها مدعوة إلى تحمل مسؤوليتها في ذلك، وهذه مناسبة لدعوتها إلى إيجاد الطَّريقة المناسبة أكثر من طرقها التَّقليديَّة في إعلان اجتهاداتها التي لا يسمع بها أحدٌ أبداً، اللهم إلاَّ أعضاء المجامع وحدهم.

إن اختيار الاحتمال أو البديل الأول يحل المشكلة إلى حدٍّ بعيد، ولكن لنفترض أنَّنا اخترنا الاحتمال الثاني، أي حداثة وحداثويَّة، فما الذي سيحدث ؟

المشكلة التي ستعترضنا الآن، بعد إخراج الحداثويَّة من دائرة الحداثة، هو الحداثة المتبقيَّة بحد ذاتها، التي يصرُّ أنصارها بل دعاتها على أنَّها عين العقلانيَّة. فهل الحداثة والعقلانيَّة متكافئتان حتى يتعذر الفصل بينهما كما يوحي الكثيرون ؟ إنَّ الأمر بحاجة إلى إعادة نظر، إلى بحث مطوَّل، ولا سيَّما أنَّ إسقاط هذا الاصطلاح على الماضي أمر حديث جدًّا ولم يكن وارداً فيما قد سبق، على الأقل فيما قبل النِّصف الأخير من القرن العشرين.

على أيِّ حال، إنَّ الاختلاف قائم، ووجهات النَّظر متعددة، وسيرورة التَّقدم التَّاريخيَّة وإن عسر خروجها عن أطر العقلانيَّة فإنَّها قد تثب وثبات هائلة بفضل اللاعقلانيَّة.

* * *

ثبت الأعـلام

الأخطل ١٤٤
أدموند ولسون ..... ١٦٣، ١٦٤
أدونيس ١١٦
أرسطو ١٦٣
أرنولد هاوزر ١٦٥
أشعب ١٢٢
أفلاطون ١٦٣
إقليدس ١١٢
إليوت، ت.س. ..... ٤١، ١١٩
إينشتين (إلبرت) ٥٥
بتهوفن ١٤٤
بدر شاكر السياب ١٠٦
د. بديع الكسم ١٧٤
برجسون (هنري) ٣٨
بروست (مارسيل) ١٦٤
بشار بن برد ١٤٤
بول (البابا) ٣٣

بول فاليري ٧٨ح
بيتر بروجيل ١١٠
بيتس ١٦٤
بيكاسو (بابلو) ..... ١٠٥، ١١٠
تزارا ١٧٣
تمام (أبو) ..... ١٢٥، ١٦٦
التَّوحيدي (أبو حيان) ٦٠
توماس لاوسون ١٨٠
ثعلب ١٤٤
د. جابر عصفور .....١٣٥ح، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ح، ١٥٧، ١٧٤، ١٨١
الجاحظ .....٨١، ١٣٠، ١٤٤
جاليليو ١٢
جرير ١٤٤
جميل صليبا ١٩٩ح
جورج بومبيدو ١٧٢
جورج لوكاتس ..... ٣٤، ١٧٨
جون ميشيل البيرولا ١٨٠
جويس (جيمس) ١٦٤
جيراد تيربورش ١١٠

حسن حنفي ..... ٦٩، ٨١
الحطيئة..... ١٤٤
حكم البابا ١٧٠
حنا عبود ..... ١٦٠، ١٦١ح، ١٦٤، ١٦٥ح، ١٧٣ح
خلدون (ابن) ..... ١١، ٥١، ٧١، ١٣٠
خوسيه ريبيرا ١١٠
داروين ١٧٧
دوكوبيل (جيري ـ جورج) ١٧٩
ديجا ٧٨ح
ديفيد سال ١٨٠
ديكارت (رينيه) ..... ٤٩، ١٧٥
ديمقريطس ١٠
رامبرانت فان رين ١١٠
رامبو ١١٩
الرَّاوندي (ابن) ١٦٦
رفائل (رافاييللو سانزيو) ..... ١١٠، ١٣١
رفاعة الطَّهطاوي ٦٣
ساندرو بوتيتشيللي ١١٠
سبينوزا ١٧٥
سعد صائب ..... ٣٦، ٤٢
سفادور دالي ..... ١٠٥، ١١٠

سقراط ١٦٣
سليمان العيسى ١٧١
سمير غريب ..... ١٦٤ح، ١٦٥، ١٦٩ح، ١٧٨، ١٨٠ح
سيجمار بولك ١٧١
سينا (ابن) ..... ٤٩، ٨١
شريف الراس ١٧١
شوقي (أحمد) ١٨٨
شوقي بغدادي ١٧٠
طاغور ٧٥
الطَّبري ٨١
د. عادل العوا ١٧٤
عبد العزيز حمودة ..... ١٣٥ح، ١٣٧، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥ح، ١٥٧، ١٧٤، ١٨١
عبد الله أحمد المهنا ..... ٣٤ح، ١٦٠، ١٦١ح، ١٧٩ح
عزراباوند دزرائيلي ١١٩
غروترود شتاين ١٦٤
الغزَّالي ١٩٩
الفارابي ١٦٣
الفرزدق ١٤٤
فرويد ١٧٧

فولف ١٧٥
كارل يسبرز ٧٥
كريستوفر كودويل ١٦٤
الكميت بن زيد الأسدي ٤٢
لوسيانو فابرو ١٦٩
ليبنتز ١٧٥
ليتش (فنسنت) ١٥٣
ليوناردو دافنشي ..... ٦٠، ١١٠
مارسيل دوشامب ..... ١٦٥، ١٦٩
ماركس ١٧٧
مالارميه ٧٨ح
مالكولم برادبوري ١٦٤/١٦٥
مايكل أنجلو ١١٠
المبرد ١٤٤
المتنبي (أبو الطيب) ..... ١٢٥، ١٣٠، ١٣١
محمد القصبجي ٦٠
مفيد خنسه ..... ١٦٨، ١٨٣، ١٨٥
مكفارلن ١٦٥
نابليون (بونابارت) ٦٣
نازك الملائكة ١٠٦
هاري ليفن ..... ٣٤، ١٦١

هتلر ٣٣
هنري لوفيفر ١٦٤
الهيثم (ابن) ٤٩
هيرونيموس بوش ١١٠
يحيى حقي ١٢١

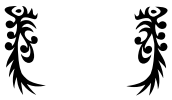

كشاف الاصطلاحات والمفاهيم

أولا: حسب الألفبائية العربية

اللغة العربيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة الإنجليزيَّة
إبداع	Création	Creation
الآخر	Autre	Another
الأصالة	Originalité	Originality
الأنا	Moi	I
اغتراب	Aliénation	Alienation
التاريخ	Histoire	History
التجديد	Innovation	Innovation
تجريد	Abstraction	Abstraction
التجريديَّة	Abstractionisme	Abstractionism
تطور	volutionة	Evolution
التعصب	Fanatisme	Fanaticism
التغير	Changement	Change
تقدم (الأسبقية المنطقية أو الواقعيَّة)	Antériorité	Anteriority
تقدم (الحركة إلى الأمام أو إلى جهة معينة)	Progrès	Progress
التقليد . المحاكاة	Imitation	Imitation
التلفيقيَّة	Syncrétisme	Syncretism
التَّوفيقيَّة	clectismeة	Eclecticism
الثقافة	Culture	Culture
الجهل	Ignorance	Ignorance

اللغة العربيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة الإنجليزيَّة
الحادث = الواقع	Fait	Fact
الحاضر	Présent	Present
الحداثة: المحدث أو التحديث	Moderneté	Modernity
الحداثة: المذهب	Modernisme	Modernism
حديث	Moderne	Modern
الحضارة	Civilisation	Civilization
الحوار	Dialogue	Dialogue
الخداع	Illusion	Illusion
الخلط	Confusion	Confusion
دعوى = ادعاء	Thèse	Thesis
الذات	Subject	Subject
الذاتي	Subjectif	Subjective
السرياليَّة	Surréalisme	Surrealism
السياسي (المنسوب إلى السياسة)	Pilitique	Political
الشعور	Conscience	Consciousness
الشكل	Figure	Figure
الصُّورة	Forme	Form
ضرورة	Nécessité	Necessity
العبث	Vain	Vain
العدميَّة	Nihilisme	Nihilism
العقلاني	Rationel	Rational

اللغة الإنجليزيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة العربيَّة
Rationalism	Rationalisme	العقلانيَّة
Idea	Idée	فكرة
Art	Art	الفن
Anarchism	Anarchisme	الفوضويَّة
Unconscious	Inconscient	اللاشعور
Irrational	Irrationnel	اللاعقلاني
Unintelligible	Inintelligible	اللامعقول
Past	Passé	الماضي
Modernity	Moderneté	المحدث
Problem	Problème	المشكلة
Content	Contenu	المضمون
Intelligible	Intelligible	المعقول
Intelligibility	Intelligibilité	المعقوليَّة
Paradox	Paradoxe	المفارقة
Object	Objet	الموضوع
Objectivity	Objectivité	الموضوعيَّة
Relative	Relatif	نسبي
Critique	Critique	نقد
Fact	Fait	الواقع

ثانياً: حسب الألفبائية اللاتينيَّة

اللغة العربيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة الإنجليزيَّة
تجريد	Abstraction	Abstraction
التجريديَّة	Abstractionisme	Abstractionism
اغتراب	Aliénation	Alienation
الفوضويَّة	Anarchisme	Anarchism
الآخر	Autre	Another
تقدم (الأسبقية المنطقية أو الواقعيَّة)	Antériorité	Anteriority
الفن	Art	Art
التغير	Changement	Change
الحضارة	Civilisation	Civilization
الخلط	Confusion	Confusion
الشعور	Conscience	Consciousness
المضمون	Contenu	Content
إبداع	Création	Creation
نقد	Critique	Critique
الثقافة	Culture	Culture
الحوار	Dialogue	Dialogue
التَّوفيقيَّة	clectismeة	Eclecticism
تطور	volutionة	Evolution
الحادث = الواقع	Fait	Fact
الواقع	Fait	Fact

اللغة العربيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة الإنجليزيَّة
التعصب	Fanatisme	Fanaticism
الشكل	Figure	Figure
الصُّورة	Forme	Form
التاريخ	Histoire	History
الأنا	Moi	I
فكرة	Idée	Idea
الجهل	Ignorance	Ignorance
الخداع	Illusion	Illusion
التقليد . المحاكاة	Imitation	Imitation
التجديد	Innovation	Innovation
المعقوليَّة	Intelligibilité	Intelligibility
المعقول	Intelligible	Intelligible
اللاعقلاني	Irrationnel	Irrational
حديث	Moderne	Modern
الحداثة: المذهب	Modernisme	Modernism
الحداثة: المحدث أو التحديث	Moderneté	Modernity
المحدث	Moderneté	Modernity
ضرورة	Nécessité	Necessity
العدميَّة	Nihilisme	Nihilism
الموضوع	Objet	Object
الموضوعيَّة	Objectivité	Objectivity

اللغة العربيَّة	اللغة الفرنسيَّة	اللغة الإنجليزيَّة
الأصالة	Originalité	Originality
المفارقة	Paradoxe	Paradox
الماضي	Passé	Past
السياسي (المنسوب إلى السياسة)	Pilitique	Political
الحاضر	Présent	Present
المشكلة	Problème	Problem
تقدم (الحركة إلى الأمام أو إلى جهة معينة)	Progrès	Progress
العقلاني	Rationel	Rational
العقلانيَّة	Rationalisme	Rationalism
نسبي	Relatif	Relative
الذات	Subject	Subject
الذاتي	Subjectif	Subjective
السرياليَّة	Surréalisme	Surrealism
التلفيقيَّة	Syncrétisme	Syncretism
دعوى = ادعاء	Thèse	Thesis
اللاشعور	Inconscient	Unconscious
اللامعقول	Inintelligible	Unintelligible
العبث	Vain	Vain

صدر من كتب المؤلف

- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق . ١٩٩٤م
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون – دار طلاس – دمشق – ١٩٩٣م.

- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.

المشـــتمل

. الإهـــــداء ٥

. التَّحديث ضرورة لا اختيار ٧

. وهم الخيار بين الأَصالة والحداثة ١٣

. الحداثة أَزمة ضياع لا ضريبة تحضُّر ٢١

. تصنُّع الحداثة: الحداثة والفكر المستورد ٢٩

. الحـداثة أَصـالة ٤٣

. الحـداثة نسـبيَّة ٥٣

. لماذا طال الجدال في الحداثة؟ «ق أول» ٦١

. لماذا طال الجدال في الحداثة؟ «ق ثاني» ٧٣

. أولاً: الجهل والتجهيل ٧٧

. ثانيا: التمركز حول الذات ٧٩

. ثالثاً: الفهم المقلوب ٨٠

. لماذا طال الجدال في الحداثة؟ «ق ثَّالث» ٨٣

. أولاً: الصعيد الاقتصادي..... ٨٦

. ثانيا: الصعيد السياسي ٨٧

. ثالثاً: الصعيد العلمي..... ٨٨
. رابعاً: الصعيد الفكري والأدبي ٨٩
. تميـيع الحــداثة ٩٣
. حقيقة مطلب الحداثيين..... ١٠٢
. الحداثيون يشوهون الفن..... ١٠٦
. أنموذج تطبيقي..... ١٠٨
. هل انتصرت الحداثة؟ ١١٥
. تعميم ما سبق ١١٧
. الحداثويون العرب ١٢٠
. من يحقُّ له التَّحيث؟..... ١٢٣
. اللعب على الهامش..... ١٣٥
. أولاً: أرض المعركة..... ١٣٧
. ثانيا: المعركة بحد ذاتها ١٣٩
. ثالثاً: المهاترة والبحث العلمي..... ١٤٢
. رابعاً: مهاترة عصفور ١٤٧
. الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية ١٥٤
. أولاً: الحداثة أيديولوجيا لا أكثر ١٦٢
. ثانيا: فكرة المؤامرة..... ١٦٦

. ثالثاً: حقيقة الحداثيين وغاياتهم..... ١٧٢
. رابعاً: تدمير الفن والفكر ١٧٦
. خامساً: وماذا بعد؟! ١٨٢
. ثقل الكلام علىٰ القلب..... ١٨٣
. في ثوب الخاتمة؛ الحداثة اصطلاح بحاجة إلى الضبط ١٩٣
. ثبت الأعلام ٢٠٣
. كشاف الاصطلاحات والمفاهيم ٢٠٩
. مـــن آثار المؤلِّف..... ٢١٥
. المشـــــتمل..... ٢١٧

EZZAT ASSAYED AHMAD

THE MODERNISM
BETWEN
RATIONLISM
AND ERRATIONLISM

The Crumble of Modernism's Claim